د. توفيق أبو الرُّب

1990

(رحمه الله )

# طوبى للمتسلقين



تصميم الغلاف والرسومات الداخلية

للدكتور محمود صادق



تسية للنشر والتوزيع

# تنبيه


رقم الكتاب الدولي .
( ISBN): 978-2-0098-7354-0





# طوبى للمتسلقين ؟!



طوبى للمتسلقين

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

| رقم الإجازة المتسلسل ١٩٩٠/١٢/٨١٠ |
| --- |
| رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية<br>١٩٩٠/١٢/٧٩٦ |

٨ع٨

توف     توفيق ابو الرب

طوبى للمتسلقين/ توفيق ابو الرب.-اربد:

دار قدسية، ١٩٩٠

(١٤٤) ص

ر.أ (١٩٩٠/١٢/٧٩٦)

١- الأدب العربي - منوعات    أ- العنوان

( تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية )

تصميم الغلاف والرسومات الداخلية

للدكتور محمود صادق



# طوبى للمتسلِّقين

الدكتور توفيق ابو الرُّب

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

قدسية للنشر والتوزيع

الاردن - اربد

ص.ب ٢٤٧٦ ت ٢٧٦٧٥٩

# الفهرس

إلى كل عَزلي نقي ،

وَإلى كل مفكر حر مستنير ،

أُهدي الكتاب ،

# ١- وَعْد

قال الابن لأبيه منفعلاً ، إذ جلسا وحدهما في مكتبة البيت ذات مساء : ألا تعلم بأنني عاتب عليك كل العتب ، ولولا أنّ الابن الصالح لا يغضب من أبيه، لارتقى عتبي الى مرتبة الغضب ؟!

قال الأب باسماً : مرحى لك ثم مرحى يا فَهْم ! فما هذه الاساءة التي أتيناها ، حتى استوجبت منك العتب؟!

قال فَهْم : إنك تَعِد ولا تنجز ، وقديما قالوا : أنجز حر ما وعد ؛ فهل السبب يعود الى أنك مشغول بقراءة الصحف أطراف النهار ، ومشغول بمشاهدة التلفاز آناء الليل ؟! ... تفعل هذا كله ، وأنت الذي كنت تلح علي بتركه إلحاحاً ، وتنصح لي بالإقبال على قراءة الكتب بدلا منه نصحاً !!

قال الأب متضاحكاً وهو يهز رأسه : . مهلاً ثم مهلاً؛

"العبد يُقرع بالعصا

والحرُّ تكفيه الملامه"

أقلَّ اللوم والعتاب أيها الفتى ، وأعلم بأن أباك رجل حر ، بل إنّ انشغاله هذه الأيام بالصحف والتلفاز ، إنّما يعود الى شغفه بالحرية ؛ فقد اهتز لهذه المفاجأة الرائعة غير المتوقعة ، كما اهتز لها الشعب جميعه ؛ ألا تنظر اليه كيف قلبت المفاجأة حاله رأسا على عقب ، وجعلته الآن يتساءَل في بهجة وحبور : أحقاً أنّه سيحظى بانتخابات نيابية حرّة نزيهة ؟! أحقا أنّ الديمقراطية قد باتت منه قريبة ؟! .. فهذه المرحلة – كما ترى– خليقة بتأمل كل مثقف معني ، وقد طلبت اليك قبل مدة أن تريح نفسك من عناء القراءة بين حين وحين ، لتتمعّن في طبيعة هذا التحوّل الاجتماعي ، الذي يقع ويجري من حولك ، ولكن دعنا من هذا كله؛ فهو حديث طويل ، أجل دعنا ، ثم قل لي : ما

هذا الأمر الذي ما زلت أعدك فيه ولا أنجز .
حتى جعلك تشكّ في حرية أبيك ؟!

قال فَهْم وقد استحيا ، وخفّف من حدّة انفعاله :
حاشَ لله أنْ أشك ؛ وإنّما هو قول مأثور ، جرى على لساني دون قصد ، بل قصدت منه أن أحضك على إنجاز وعدك ! .. والحق أنّ لك عليّ فضلا أيّ فضل في توجيهي نحو القراءة الهادفة ؛ وذلك إذ أخذت منذ زمن تتخيّر لي ألوانا من كتب، تهب الثقافة والمتعة ، وتحفز على الملاحظة والتأمل، حتى غدت المطالعة أخيراً عادتي النافعة ؛ بها أجد رَوْحي وراحتي ، وبها استثمر وقتي الزائد ، إذا ما فرغت من مذاكرة دروسي الجامعية ، ولكنني قلت لك غير مرة : إنّ القراءة توحي اليّ أحيانا بأسئلة حائرة ، وانها تولدّ في ذهني آراء متصارعة : منها ما يتعلق بشؤون المجتمع والناس، ومنها ما يتعلق بشؤون الفكر والأدب ،

ومنها ما يتعلق بشؤون الحياة والوجود ؛ فأنا إذن أتطلـع في شوق الى من يسائلني وأسائله ، وأتشوّق في شغف الى من يحاورني وأحاوره ، وقد قلت لي غير مرة : إنك ستخصّص لي من يومك وقتا ، لتحادثني ، وتقابسني الرأي ، وإنّ هذا سيتم هنا في مكتبة البيت كل مساء ، بعد أن تفرغ من العمل في معهدك العالي، ولكنك ما زلت تعد ولا تفي ، والأيام تمضي ثم تمضي ، وموعد الامتحان يدنو ثم يدنو،فإذا أنت لم تجالسني هذه الأيام ، فمتى ستحاورني إذن ؟ .. عندما يغدو الامتحان قاب قوسين أو أدنى ؟!

قال الأب مداعباً : أوه ... الى هذا رميتَ إذن أيها الفرخ ، الذي يودّ أن يطير قبل الأوان ! ألا تعلم بأن مجالستك ومحاورتك هما أحب شيء الى نفسي ، ولكني كنت أعدك وعد عرقوب ؛ لاعتقادي بأنك ما زلت طري العود ، مثالي الرأي ، حالم

النظرة الى الحياة ، وأنا إذا جلست اليك لأحاورك؛ فلا بد لي من أن أطلق نفسي على سجيَّتها ، ولا بد لي من البوح بحقيقة ما أرى في الأشياء ، وكل ما أخشاه أن تصدم الحقيقة المرّة مثاليتك السعيدة ، وأن تُفزع أحلامك الوردية ، وأن تنزع بك من التفاؤل الى التشاؤم ؛ فما رأيك في أن نجعلها جلسات سَمَر : فيها قليل من الجد ، وفيها كثير من الهزل ، ويكون لها حظ من البوح بالحقيقة ، ولها حظوظ من المجاملة والإغضاء ؟!

قال فَهْم وقد عاد اليه انفعاله : دعني من المجاملة ؛ لأني أراها كل يوم بين الناس ، بل دعني من النفاق ،لأنه يملأ الدوائر والنوادي والأسواق ؛ فلست ألتمسُ منك إذن سوى محاورات بريئة صريحة ، هدفها كشف الزيف والباطل ، وغايتها تجلية الحقيقة الناصعة ، ولا

خوف علي من هذا ؛ فقد عصمتني هذه الكتب التي قرأتها من خشية الحقيقة ، بل لقد نمّت لدي محبتها وعشقها ، وعلمتني تحرّيها ونشدانها ، مهما تكشف لي عن واقع مرّ ، ومهما تظهرني على أشياء سوداء.

قال الأب مسروراً : الحمد لله إذ نجحت في ما قصدت اليه منها ؛ وما دام الأمر كذلك ؛ فأنا على استعداد أن نبدأ منذ الليلة ، ولكن بثلاثة شروط .

قال فَهْم : وما هي ؟!

قال الأب : أما الشرط الأول فهو ألاّ تذيع على الملأ شيئاً من هذه الآراء ، التي قد نصل اليها في الحوار؛ فبعضها لا شك يسوء كثيراً من الناس ، وبعضها قد يعرضنا منهم للشر والأذى ، ومن يدري ؟ فبعضها قد يقودنا الى غياهب السجن !

قال فَهْم : والشرط الثاني ؟!

قال الأب : أن تبدأ حوارك من شغل الناس الشاغل هذه الأيام ، أو من هذه المفاجأة التي هزتهم هزاً ؛

حتى إنها قلبت ليلهم نهاراً ، فدفعت الوجهاء الى تملّق الفقراء ، واضطرت من اشتهر بالتعالي والعنجهية الى اصطناع التواضع والأريحية ، وأرغمت كثيراً من العشائر الكبيرة ، الى مصانعة العشائر الصغيرة ، .. أجل نبدأها من معركة الانتخابات ، التي تدور رحاها منذ شهور ، والتي توشك أن تبلغ منتهاها بعد أيام !

قال فَهْم : والشرط الثالث ؟

قال الأب : أن يكون حوارنا بلغة سليمة قويمة ، أو بكلام عربي مبين ، كما نفعل أحيانا ؛ فأنت تعلم كم أكره هذا اللحن الفاشي ، وكم أضيق بهذه العُجْمة التي تبدو لدى الكتاب والمثقفين هذه الأيام.

قال فَهْم مغتبطاً : . أوافق على شروطك كلها ؛ فهل نبدأ منذ الليلة ؟!

قال الأب : بل نبدأ الآن ؛ فهات ما عندك .

* * *

## ٢- مكر المرشحين

قال فَهْم وقد استنشط للحوار : هل أتاك حديث هؤلاء المرشحين ، الذين يكيد بعضهم لبعض ، ويمكر أحدهم بالآخر ؛ فقد رووا في أمرهم النوادر والحكايات ؟!

قال الأب باسماً : وما ذاك ؟! هات ما عندك ؛ فقد شوقتني الى حديثهم !

قال فَهْم : . يروى أنّ بين المرشحين من يحب أن يأكل لحم منافسه ميتاً ؛ إذ ينشر صحيفة ماضيه وحاضره ، ليعيب ما يعيب من أعماله ، وينقض ما ينقض من أقواله ، وينقد ما ينقد من شعاراته، ويثبت تهافت مزاعمه وآرائه ، وحجته في هذا أنه ينبغي مصارحة الجمهور ، ويجب وضع الحقائق الخالصة بين يديه، فما ترى في هذه الظاهرة الحادثة ؟!

قال الأب : أرى أنها ظاهرة صحية ،لو لا أنَّ اللحم يُؤكل فيها ميتاً ، ولو استنصحني هؤلاء ، لنصحت الواحد منهم بأكل لحم أخيه حيّاً ، فهو ألذ وأشهى!

قال فَهْم متعجباً : . وكيف يأكل لحمه حياً ؟!

قال الأب : . بمجابهته لا باستغابته ، وبمحاورته لا بمجاملته ؛ وذلك من خلال الندوات ، التي ينبغي أن تُعقد ، وفي أثناء المناظرات ، التي يجب أن تُجرى ، فلو تيقن مرشحونا أنْ لا مناص لهم من الاشتراك في ندوات ومناظرات حامية ، تشهدها الجماهير الغفيرة ، وتنقلها الإذاعة والتّلفاز ، ويكون الشعب حكمها الفيصل ؛ لأدركوا أنّ الترشيح جد لا لعب ، وأن شخصياتهم فيه معرّضة لامتحان أيٍّ امتحان! ولآثر أكثرهم السلامة منذ البداية ، بل لقنع أغلبهم الآن من الغنيمة بالإياب !

قال فَهْم : وهذه النوادر التي تُشاع بين حين وحين ، حول هذا المرشح أو ذاك ؛ فبعضها لا يكاد

يُصدِّق أنه حدث حقاً ،...هل تُصدِّق مثلا أنّ أحد المرشحين سأله بعض الناس عن معنى "الديمقراطية" ؛إذ سمعوه يردد الكلمة في عباراته،ورأوه يثبتها في لافتاته ؛ فإذا هو يفسرها على غير وجهها ، وإذا هو لا يفقه معناها الفقه الدقيق، وإذا هو يشارك معظم جمهوره العامي في عدم فهمها الفهم الصحيح !

قال الأب وقد انفجر بضحك مفاجىء : .ماذا قلت : ديمقراطية؟! لقد أذكرتني الكلمة شيئا طريفا ..ولكن ماذا ..أما زال فيها فرصة لمكر المرشحين وكيدهم ؟!.. أما زال معناها يلتبس على بعض الناس ، كما كان الشأن في أوّل هذا القرن ؟! لقد كنت أظن أنّ الكلمة ذاعت وشاعت ،وفقة معناها العامّي والخاصّي ، كما يقول الجاحظ ، ولكن ها أنتَ ذا تروي لي فيها ما يدعو الى الابتسام !!

قال فَهَم وقد ابتسم ايضاً : أضحك الله سنَّك ؛ إني

أراك تضحك ، فما هذا الشيء الطريف الذي أذكرتك إيّاه الكلمة ؟!

قال الأب : لقد تذكرّت هذه القصة التي تُروى فيما تروى عن لطفي السيد ، أستاذ جيل من المثقفين المصريين أول هذا القرن ، فقد قيل : إنه رشح نفسه ذات مرة للبرلمان ، ثم راح يذيع في دعايته الانتخابية أنه من أنصار "الديمقراطية" ، وحين شعر أحد المرشحين في دائرته أنه ظاهر متميز ، وأنه المنافس الأكثر تفوقا ، قرّر أن يلجأ الى الحيلة لهزيمته ، فانتظر حتى حمي وطيس المعركة الانتخابية ، واقترب موعد الحسم فيها ، ثم اجتمع بجماعات من العامّة ، فقال لهم فيما قال : ألم تسمعوا لطفي السيد يدعو الى الديمقراطية ؟! قالوا : بلى ، فما معنى هذه الكلمة ؟ قال : معناهاإباحة النساء ، واشتراك الرجال فيهن ، كما هي الحال في أوروبا !

وهنا استعاذ القوم بالله من الشيطان ، وأخذوا يتميّزون من الغيظ ، ثم انصرفوا ،وقد استشاطوا غضبا وسخطا ، وداخلهم الشك القوي في الدعوة؛ فكانت النتيجة أن سقط لطفي السيد في الانتخابات ، ونجح هذا المنافس ، بفضل حيلته الماكرة .

* * *

## ٣- ادّعاء

قال فَهْم مبتسماً : . وهل أتاك حديث هؤلاء المتنافسين في الترشيح ، الذين يسهرون الليل الطويل ، ويبذلون الجهد الجهيد ، وما فيهم إلاّ من رفع الشعارات البرّاقة ، ونشر العبارات المنمّقة ، يتودّد فيها الى الجمهور بمعسول الكلام، ويزعم أنه ابن الشعب المنقذ ، الذي قيضّه الله لحل مشكلاته المستعصية ، وتبديد همومه المتراكمة ، وتحقيق أمانيه العريضة ، وتحرير أرضه المغتصبة، حتى حار الناس بينهم في الاختيار ؛ إذ تقاربت وعودهم وشعاراتهم ، وتشابهت مزاعمهم وادعاءاتهم ، وحمي وطيس معركتهم الانتخابية!

قال الأب معترضاً : ولكنّ الشعب الرشيد لا يحار في مثل هذا الأمر ، مهما تتعدّد الأسماء وتختلف، ومهما تتشابه الشعارات وتأتلف ، ومهما

تشتد حدة المعركة الانتخابية !

قالَ فَهْم متسائلا : ولماذا ؟!

قال الأب : لأن الشعب الرشيد لا يلتفت الى شعارات المرشح وأقواله ، وإنما ينشر صحيفة ماضيه وأعماله ، ثم يتأمّلها ويزنها جيداً ، فأما من ثقلت موازينه بجلائل الأعمال فهو يستحق الانتخاب ، وأمّا من خفّت موازينه برذائل الأفعال فقد حان وقت عقابه، وذلك بالإعراض عنه والازورار !

قال فَهْم : وهذه العبارات والوعود المعسولة ، وهذه الادّعاءات الوطنية العريضة ، ماذا يصدق فيها إن تبيّن أنّ أصحابها ممّن خفّت موازينهم ؟!

قال الأب باسماً : . أما العبارات والوعود المعسولة فيصدق فيها قول ذلك الظريف ، الذي قال : إنّ كثرة الكلام عن العسل ، لا تجلب حلاوته الى الأفواه ، وأما الذين يدّعون عشق الجمهور ، والذين ما انفكوا يشبّبون بالأمة ، وما برحوا

يتغزلون بالوطن ، فيصدق فيهم قول الشاعر

" وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى

وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا"

* * *


انتخبوا مرشحكم الأصيل ابن الأصيل

## ٤- ماذا حدث للعشيرة ؟

قال فَهْم متحمساً وقد جلس الى والده بعد أيام : ها هي ذي الانتخابات تُسْفِرُ عن نتائجها ، وها هي ذي معركتها تضع أوزارها ، وإنيّ قد لحظت أمراً فيها، ما زال يلحّ عليّ إلحاحاً ، ويدعوني الى التفكير فيه بين حين وحين ، وأحب أن أعرضه عليكّ ؛ لأرى رأيك فيه ؛ فلست أدري : أتستحسنه أم تستاء منه ؟ بل لست أدري : أأمدحه لك أم أذمه ؟ .. على أني قد دهشت لوقوعه ، وما برحت أعجب منه !

قال الأب في اهتمام : وما هو ؟!

قال فَهْم : لقد لحظت أنّ العشيرة في المجتمع قد تضعضعت مكانتها ، وضعفت روابطها ، بل لمحتها وقد اختلّ نظامها واهتزت تقاليد زعامتها ، وذلك بالقياس الى ما كان عليه الأمر قبل سنوات ، وقد

بدا هذا كله في أثناء الانتخابات من خلال مظهرين : الأول أنك كنت تسمع هنا وهناك من يجهر بالقول :.." لا لمرشح العشيرة ؛ لأنه ابن العشيرة ليس غير ، ونعم للمؤمن الصادق ، والصلب المكافح ، مهما تكن عشيرته " وقد تمخّض عن هذا في النتيجة أنْ كان أكثر الفائزين ممّن لا ينتمون الى عشائر كبيرة !.

وأما المظهر الثاني فقد بدا داخلها ؛ ذلك أنه ما من عشيرة كبيرة ، إلاّ قد وجد شيخها من ينافسه في الترشيح ، ويتحدى زعامته التقليدية لدى الناخبين قائلاً لهم :

".. لا للوراثة . . ونعم للجدارة .."وقد تمخّض عن هذا في النتيجة نكسات لبعض العشائر !.. فما تقول في هذه الظاهرة الحادثة : أهي بداية تغيّر اجتماعي جديد ، أم هي حالة عابرة ، كسحابة صيف عمّا قريب تقشّع ؟!

قال الأب : لا .. ليس الأمر بعارض عابر ، ولا هو بسحابة صيف ،وإنّما هو بداية تغيّر اجتماعي ، يبشّر بتحوّل حضاري جديد ، ذلك أنّ القبليّة هي طور من أطوار الاجتماع الإنساني ، ما من مجتمع بشري إلاّ مرّ به ، بل إن أكثر الشعوب ما زالت تمرّ به منذ آلاف السنين ، وأما الشعوب القليلة ، التي تجاوزته ، فهي هذه الدول التي ننعتها الآن بالرقي والتقدم ، وتقود عالمنا اليوم ، ... فالمجتمع الأوروبي مثلاً ، كان مجتمعاً قبليا ، ولكن منذ أطلق "فرنسيس بيكون" عبارته الشهيرة ، أو منذ أطلق "سرفانتيس" فارسه العنيد "دون كيشوت"، أو منذ بدأت الثورة العلمية تؤتي أكلها،أخذ هذا المجتمع القبلي بالتحوّل شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى طوره الحضاري الأرقى ، والحق أننا لو رغبنا الآن في عدم تجاوز الطور القبلي ، لما استطعنا ؛ لأنّ التطور سُنّة حتمية ، لا مناص

لنا منه ، وإذن فلنستبشر خيراً بهذا التحول الاجتماعي الجديد ، الذي أخذنا نلحظه أخيرا ، ولنندفع فيه إلى أبعد مدى ، حتى يأتي اليوم الذي نقول فيه للقبيلة : وداعاً أيتها القبيلة العزيزة .. وداعاً لا لقاء بعده !

قال فَهْم بعد أن عضّ على شفته السفلى : اخفض صوتك ؛ كي لا يسمعك جَدُّي ، أمَا لو سمعك لثار بك ، ولكان لك معه يوم مشهود ! .. أجل اخفض من صوتك ، ثم أجبني : أما كنت تغضب لو كنت شيخ عشيرة ، ورأيت أفراداً منها لا يتورّعون عن منافستك في السباق إلى البرلمان ؟ !

قال الأب : كلا ما كنت لأغضب ، لأني أدرك طبيعة التغيّر الاجتماعي وحتميته ، وأدرك أنّ قديم العهد قد ولىّ ، وأنّ جديد العصر قد جاء ، وأنّ المرء ينبغي أن يعتمد على مقدرته وحدها ، وأنّ الولاء ينبغي أن يكون للحزب وللمجتمع عامة ، لا للقبيلة




طوبى للمتسائلين

أو العشيرة خاصة ، .. وأحسب أنّ الأحنف بن قيس ، أشهر شيخ عربي ، لو كان بيننا هذه الأيام لما أزعجته المنافسة ، ولما غضب من التحدي ، بل لما استطاع أن يغضب غضبته المُضَرِيَّة المشهورة.

قال فَهْم مندهشا : إني لأعجب منك ، إذ تحشر اسم الأحنف هنا حشرا ، لتحدثني عن المشهور من غضبه ، مع أنّ المشهور هو حِلمه ، فقد ضرب به المثل ؛ ألم يقل أبو تمام في تصويره حلم ممدوحه: " في حِلْم أحنفَ في ذكاء إياسِ " ؟! فما هذه الغضبة المعروفة ، التي تقول عنها ؟!

قال الأب : ألم يُروَ أن الأحنف قد دخل على معاوية ذات يوم ، فَبَدَر من الخليفة نحوه ما أغضبه ، وحينئذٍ لم يتردد في القول له : اعلم يا معاويَ أن قلوبنا التي أحببنا بها عليا ، ما زالت بين ضلوعنا ، وأن سيوفنا التي حاربناك بها في "صفين" ما زالت في أغمادها ، قال هذا ثم خرج ، دون أن يجيبه

معاوية بشيء ؛ مما أدهش بعض أهله ، فسألوه عن هذا الذي يتوعّد الخليفة ، ولا يرد عليه ، فقال معاوية : هذا الذي إذا غضب غضبت له ألوف من بني تميم ، لا يسألونه : لمَ غضب ؟!

قال فَهْم : بلى ؛ ذلك أن غضبة تميم مشهورة ، شديدة الوقع ، ألم يقل شاعرها جرير :.

إذا غضبت عليك بنو تميمٍ
حسبتَ الناس كلهمُ غِضابا

ولكنني لم أفهم قولك عن الأحنف : إنّه لوكان بيننا لما غضب من المنافسة ،أو لما استطاع أن يغضب !

قال الأب : لأنه كان سيعتدّ بكفايته ومناقبه من جهة ، ولأنه من جهة أخرى كان سيدرك بثاقب بصيرته أنّ العصر قد تغيّر ، وأن من حق أبناء قبيلته أنّ يسألوه عن سبب غضبه وأن يناقشوه ، بل من حقهم أن يخالفوه في الرأي وأن ينقدوه ، .. ماذا

قلت؟! بل من حقهم أن ينافسوه في ترشيح أنفسهم للبرلمان؛ وأن ينتزعوا منه الزعامة ، ولو نازعته نفسه الى الغضب منهم أو بهم لأسرّ ذلك ، ولما استطاع أن يجهر به ؛ إذ كان سيدرك أن الجهر سيضطره في النهاية الى أن يفرّ من قومه إليهم ، مخاطباً إيّاهم بقول الشاعر : .

وقد غضبت فما باليتمو غضبي

حتى رجعت بقلب ساخطٍ راضِ

* * *

# مَاذا حَدث للعشيرَة ؟!

مَاذا حَدث للعشيرَة ؟!



## ٥- مقولة الشعب في نوابه !

قال فَهْم ضاحكاً : وهل أتاك ما يقوله الشعب عن مرشحيه ، الذين نجحوا في دخول البرلمان ؟! أما لو سمعت ما يقوله ، إذن لتحقّقت من أنّ شعبنا اليوم ليس هو شعبنا بالأمس ،فقد غدا على قدر كبير من الوعي ، وأضحى على درجة عظيمة من الإدراك ، فهو لم يعد يغترّ بمظاهر الأعمال والأفعال ، وهو لم يعد ينخدع ببهرج الكلام والأقوال ، بلٍ - -- - من أنه لم يعد هو هذا الشعب ، الذي وصفه شوقي بقوله :

"يا له من ببغاء　　　　عقله في أذنيه"

قال الأب في اهتمام : . وما الذي يقوله ؟!

قال فَهْم : يقول الشعب : لا ريب أن بعض النَّواب الذين أنجحناهم في الانتخابات ، قد صحّت

استتنا فيهم ؛ إذ أثبتوا أنهم أهلٌ لحسن ظننا، بل إنّ بعض هؤلاء قد فاقوا كل توقع ؛ إذ برهنوا أنهم ممتازون رائعون ، ولذا فنحن سعيدون بهم ، متحمسون لهم ، مصرّون على انتخابهم في الجولة القادمة ،.. ولكن بعض النواب الآخرين ، قد خذلونا ، وخيبوا ظننا حقاً؛ إذ تنكروا لوعودهم التي بذلوها ، وتخلوا عن عهودهم التي قطعوها ، وتناسوا شعاراتهم التي رفعوها ، وعكفوا على أحلامهم وحقّقوها : كنا نريدهم في صفوف المعارضة والمخالفة ، فإذا هم يتعشقون الأضواء الخاطفة ،وكنا نريد منهم أن يقضوا على آفة الوساطة المستشرية ؛ فإذا هم يمشون في ركابها صباح مساء ، يفعلون هذا كله ، وكأن الأمر لهم سيدوم، وكأن غد الانتخابات القادمة لناظره ليس بقريب ، وكأن هذا اليوم حين يجيء لن يكون عليهم بعصيب !

قال الأب باسما : جميل .. جميل! ها هو ذا شعبنا قد أخذ يدرك أخيراً أنه مصدر كل سلطة ، وأنه الوحيد الذي يحق له أن ينتقد النواب ؛ لأنه هو الذي وهبهم الحصانة، وذلك حين اختارهم لتمثيله والحديث باسمه ، ولكن ما سمعته منك يذكرني بتلك الحكاية ، التي رويت في أثناء الانتخابات ؛ فقد قيل : إن أحدهم كان معروفا بجفائه وخيلائه ـ، ولكنه حين قرر أن يرشح نفسه، اضطر الى أن يصطنع التواضع واللطف مع الناس ، فكم من بيت فقيرٍ قد ولجه ، واجتمع بربه، وهو يحمل الهدايا للأولاد ! وكم من بائس مهلهل الثياب قد صادفه في الطريق ، فصافحه مبجّلا متهلّلا ! وكم من ذقن غير حليق ، قد اضطر الى تقبيله ، وهو يحتضن صاحبه معانقاً ! ... وأما الوعود والعهود التي قطعها على نفسه ، فحدّث عنها ولا حرج ؛ فقد راح يطلقها في مجالسه ذات

اليمين وذات الشمال، حتى إذا بالغ في هذا أيَّما مبالغة ، قال له أحد أصدقائه ذات مساء ، وقد انفرد به : ويحك يا هذا ! اقتصدْ شيئًا ما في كلامك أمام الناس، فماذا ستصنع بهذه الوعود والعهود التي قطعتها على نفسك ، وكيف تستطيع أن تفي بها كلها ، إذا نجحت في دخول البرلمان؟!.... فما كان من هذا المرشح إلا أن ضحك ضحكته المجلجلة المعهودة ، وقال حينئذٍ : ويحك يا صديقي ما أشد سذاجتك ! وهل تظن أني سأفي بهذه العهود والوعود كلها ؟ قال الصديق : وماذا ستصنع بها إذن ؟! قال المرشح: لا شيء ، أما علمت أنّ من فضائل شعبنا أنه سريع النسيان ، كثير الغفران ، فليت هذا المرشح يسمع حديثك الآن ، إذن لرأى في الأمر عجبا !

قال فَهْم : ليس بالعجيب أن يتذكر الشعب ، وإنّما العجيب أن يتناسى هؤلاء عهودهم ووعدهم .

قال الأب : ليس بالعجيب أن يتناسى هؤلاء العهود والوعود ، وإنما العجيب أن يتذكروها ؛ إذ ما لهم لا يتناسونها ، وقد أضحوا نجوماً اجتماعية زاهرة ، ترصد وسائل الإعلام حركاتهم وسكناتهم، وتنقل الإذاعة والتلفاز بياناتهم وكلماتهم، وتتنافس المنتديات والجمعيات على خطبهم ومحاضراتهم ، وتنشر الصحف صورهم بالألوان وبغير الألوان ، أجل ما للواحد منهم لا يتناسى ، وقد حدث له ما حدث للشاعر اللورد "بيرون" إذ قال : .. " **استيقظت من نومي ذات صباح وإذا أنا رجل مشهور** " .

* * *

## ٦- مقولة هرتزوغ في الانتفاضة !

قال فَهْم وهو يتأمل (خريطة) في المكتبة لفلسطين المحتلة : أما الليلة فلن أحاورك في النواب والانتخابات ؛ ذلك أنّ هذا الحوار قد تعدّد وطال ، حتى صرت أخشى الضجر منه والإملال ، وأرى أنه قد آن أوان الانطلاق الى آفاق الفكر الحر الرحيب ؛ لأقابسك الرأي في بعض هذه القضايا،التي ما زالت تلح عليَّ إلحاحاً ، كهذه القضية المتعلقة بعبارات أطلقها حاييم هرتزوغ ، رئيس الكيان الصهيوني ، حين زار السويد أخيراً، فهي عبارات ما زلت أذكرها بين وقت وآخر ، وكلما تذكرتها وتأملتها شعرت بأن لليهود مكرا ، يكاد يزيل الجبال ؛ ذلك أنها تحتوي في ظاهرها على قَدْر من الصحة والمنطق ، ولكنها في حقيقتها تنطوي على التضليل والإيهام ، بل هي عبارات

تبدو في ظاهرها الرحمة بالفلسطينيين ، ولكن في باطنها يكمن العذاب المقيم لهم !

قال الأب في اهتمام : وماذا قال ؟!

قال فَهْم : لقد أشار هرتزوغ ، إذ سئل عن الانتفاضة في السويد ، إلى الآباء والأمهات في الضفة والقطاع فقال : "...عجبا لهم هؤلاء الآباء والأمهات؛ ما أظلم نفوسهم ، وما أشد قساوة قلوبهم ! كيف لا تأخذهم الرحمة بفلذات أكبادهم الصغار ؟! وكيف يزجّونهم دون شفقة في أتون الانتفاضة ، معرّضين إياهم إمّا للموت وإمّا للإصابة ؟!"

فما رأيك في هذه الدموع الغزيرة يذرفها كبير التماسيح ؟! وما رأيك في هذا الكلام الخادع الخلاّب ؟ وهل يمكن أن ينطلي على السويديين ، أو على غيرهم من الأوروبيين ؟!

قال الأب : لا ينطلي هذا الكلام إلاّ على من عقله في

أذنيه ، وأما من له عقل يفكر به فسيدرك الحقيقة الناصعة ، التي يسعى هرتزوغ وأقرانه إلى تمويهها، ويجهدون في إخفائها عن العالم ، أجل سيدرك كل عاقل أن ثمة وضعاً وحشياً رهيباً ، لا مثيل في التاريخ لقساوته ، يعايشه الفلسطينيون الآن في الضفة والقطاع ، وأنّ هذا الوضع هو الذي يضطرهم إلى أن يزجّوا بفلذات أكبادهم الصغار؛ ليشعلوا أمام العالم انتفاضة ، يكون وقودها الأطفال والحجارة ؛ فالأمر إذن لا يدل على قساوة في الآباء ، وهو لا يدل على نقص في عاطفة الأمهات ؛ ذلك أنّ عاطفة الأمومة موجودة حتى لدى الحيوانات . بل إنّ الأوروبي يدرك جيداً أن العربي مشهور بمحبته الاطفال ، وأنه يضحّي بالراحة ومستوى المعيشة ؛ كي ينجب من الأطفال العدد الأكبر ؛ وإذن فهو سيستنتج أنّ مصدر هذه القساوة المتوحشة هو هرتزوغ نفسه وزملاؤه ،

بوصفهم قادةالصهيونية الجدد ، وأن قساوتهم هي
التي تدفع الفلسطيني الى خيار وحيد رهيب ، بعد
أن استنفد في المقاومة والكفاح شتى الأساليب ،
وبعد أن خذله الصديق والقريب ، وهذا الخيار هو
أن يقدّم أعزّ ما لديه قرباناً لحريته ، ليحرك ضمير
العالم ، الذي يقف مما يجري وقفة المتغافل
اللاهي، وينظر الى ما يحدث نظرة المتفرج غير
المبالي ؛ وذلك ليفضح الصهيونية ويعرّيها أمامه ،
وليشهده على أنها لا تتورع عن قتل أطفاله ، في
سبيل تحقيق هدفها الخبيث ، وهو سلبه حق تقرير
المصير !

قال فَهْم : وقد حركت الانتفاضة ضمير العالم شيئاً
ما ، فأخذت بعض الدول تصارح الصهيونية بأنّ
عليها أنْ تسلّم للفلسطينيين بحقهم في تقرير
المصير ، ولكنها اصطدمت منها بهذا العناد
الشديد ، الذي تبديه ، فهي تأخذها العزة بالإثم ،

ولا تريد أن تؤوب إلى الحق أبداً ، ولذا فهي ما زالت تأبى وتكابر ، وتداور وتناور ، وتراوغ في طرح حلول عقيمة للقضية ، وفق رؤيتها الخاصة ، حتى يخيل للمراقب أنها تخشى حقاً أن يُعطى الفلسطينيون فرصة لتقرير مصيرهم ، بل أذكر أنّ بعض غُلاتها قد صرّحوا بهذا تصريحاً ، وقرروا أنّ دولة فلسطينية مستقلة ، من شأنها أن تهدّد في المستقبل وجود إسرائيل ، فهل لك أن تكشف لي سر هذه الخشية المستهجنة ؟! وهل لك أن تبين لي الهدف الماكر ، الذي تخفيه الصهيونية في هذه الحلول ، التي ما انفكت تطرحها بين حين وحين ؟!

قال الأب : لقد لاحظت الصهيونية في أول هذا القرن أن الظّرف الحضاري والسياسي يميل إلى جانبها، ولاحظت في الوقت نفسه أن هذا الظرف لا يميل البتة إلى جانب العرب ؛ ولذا رأت في هذه

الحقبة فرصتها الذهبية ؛ لإقامة كيانها ، فقررت انتهاز الفرصة ، وهكذا هجمت على الشعب الفلسطيني الأعزل المكبّل ، في حقبة مظلمة ظالمة، وقد جعلت هدفها أن يكون هذا الهجوم قاسيا ، بالغ القساوة، وأن يظل مستمراً ، دائم الاتصال ؛ وذلك كي لا تترك له فرصة للدفاع عن نفسه ، .. وإذن لا غرابة في خشيتها من أن يحظى هذا الشعب بحقه في تقرير مصيره ، أو أن تتاح له الفرصة لإقامة دولته المستقلة، ذلك أنها تعرف جيداً فداحة الجريمة التي ارتكبتها ، وتعي جيداً أن الظرف الحضاري لا يبقى دائماً الى جانب أمة دون أمة ، وأنّ الأيام دول ، يداولها الله بين الناس جميعاً ، ولذا فهي تخشى من حقيقة ، طالما حذّر الحكماء المعتدين منها ، وقد عبّر عنها الشاعر العربي بقوله :

إذا وطئتَ امرأً فاحذرْ عداوتَهُ

من يزرعِ الشوك لا يجني به العِنَبا

.... نعم : إن الصهيونية لا تتوقع أن تجني العنب من الحقل الفلسطيني ، بعد أن زرعته بالألغام والجماجم ، وبعد أن روّته بالدموع والدماء، وهي تخشى أن ينهض هذا الشعب الموتور ذات يوم ، ليدرك ثأره التاريخي من شعب الله المختار ! هذا هو سرّ مكابرتها وخشيتها ، وكأنها لا تدرك أن الرجوع الى شيء من الحق أفضل من التمادي في الباطل ، وأنّ تكفيرها عمّا اقترفت يكمن في انصاف الفلسطينيين ! ... وأما هدفها الذي تحاول إخفاءه في ثنايا حلولها المقترحة فهو واضح أيضاً ، ذلك أنها تريد حلاً تطمئن اليه كل الاطمئنان ، ويضمن لها النصر الدائم ، .. إنها تريد حلاً يترك الفلسطينيين في وضع لا تقوم لهم معه قائمة ، أو حلاً يلحق بهم

من الناحية الاستراتيجية الهزيمة الدائمة !

ل فَهْم في إشفاق ظاهر : وهل يمكن لها أن تحقق هدفها هذا ؟! وهل يستطيع أن تلحق بالشعب الفلسطيني هزيمة نهائية ؟!

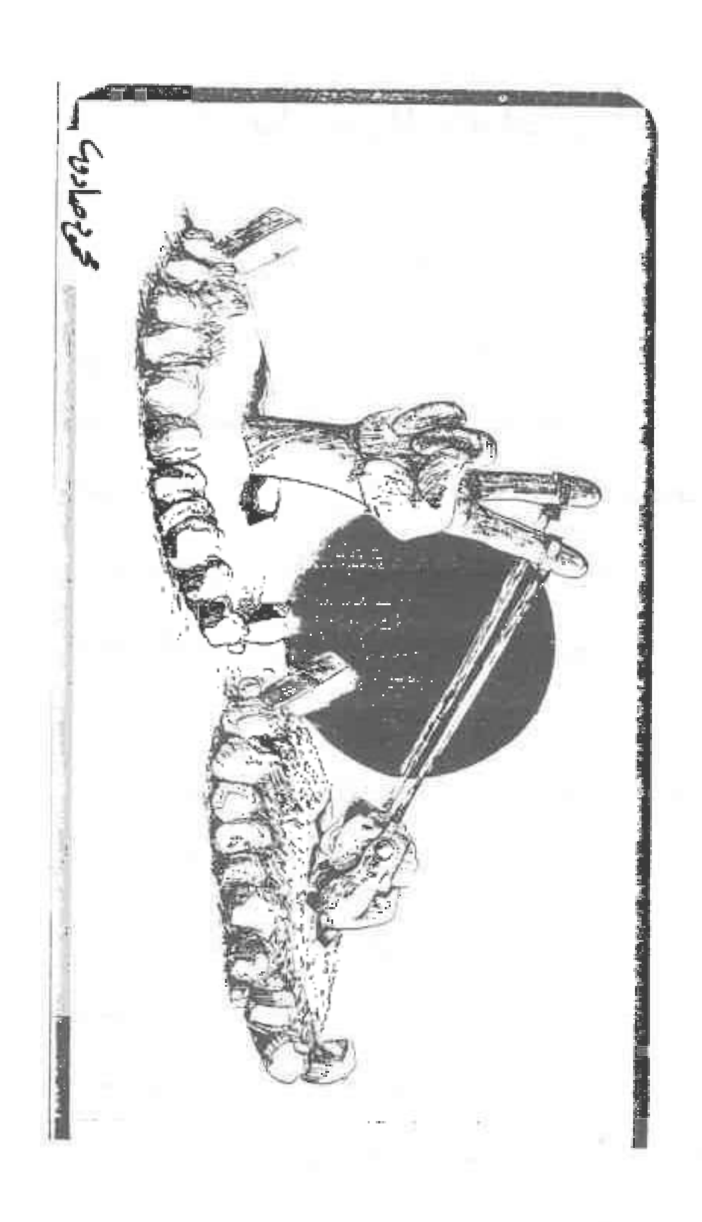
ل الأب: لقد رأيتك قبل مدة تقرأ قصة "الشيخ والبحر" لارنست همنغواي " فأرجو أن تكون قد توقفت عند هذه العبارة الرائعة ، التي عبّر فيها الكاتب عن حقيقة إنسانية خالدة ، ممّا ميّز هذه العبارة وأذاعها ، وجعل الكتاب والمثقفين يرددونها!

قال فَهْم مستوضحاً : وما هي ؟!

قال الأب : لقد قال همنغواي بلسان بطله :" ..إنه يمكن تحطيم الانسان ، ولكن ليس بالإمكان هزيمته" الشعب الفلسطيني شعب إنساني، فهو على الرغم من محنته القاسية الفريدة ، ما زال قلبه ينبض بالأمل ، وما انفك فؤاده يعمره الحب لبني البشر ، وما برحت نفسه تميل الى الخير دون

الشر ، بل ما فتىء في غمرة كفاحه يميّز بين اليهودي والصهيوني ، .. وإذن فالصهيونية بظرفها الحضاري الحالي قد تستطيع تحطيمه ، ولكنها لن تستطيع البتة هزيمته ، وآية هذا أن روحه - كما يتجلى الآن من خلال أطفاله - يستعصي على الاستسلام ، ذلك أنه روح قوي غير قابل للهزيمة أبداً .

* * *



## ٧- طوبى للمتسلِّقين !

قال فَهْم منفعلاً ؛ إذ تذكرً بغتة تجربته الصباحية المُرَّة في إحدى الدوائر : ألا إني قد تنبهّت اليوم إلى آفة في المجتمع العربي ، هي أفتك فيه من سائر العلل والأوصاب ، وأكثر تهديداً له من الصهيونية والاستعمار ، وأضرّ به من الفقر والبطالة ، وأشد عوقاً لتقدمه من عوامل التأخر الأخرى !

قال الأب في اهتمام : وما هي ؟!

قال فَهْم مندفعاً : إنها الوساطة يا سيدي ... نعم إنها الوساطة ، فقد تفشّت هذه الآفة في المجتمع العربي من أقصاه الى أقصاه ، وآمن بمقدرتها البدوي والحضري ، وأذعن لسلطانها المثقف والعامي ، ورآها الجميع تغلب الحق والجدارة ، بل رأوا الحق لا يدركه صاحبه إلاّ بها ، .. وهكذا فقد استشرى ضررها واستفحل أمرها ، ولاحت

للناس كجواز سفر سحري ، لا تمنعه حدود ولا سدود ، ولا ترده أعراف ولا قوانين ،.. به يستطيع الجاهل أن يفوق العالم ، وبه يستطيع الوضيع أن يجوز الرفيع ، وأما المنافق المتسلق فبه يستطيع أن يتغنىّ قول أبي العلاء :

"وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه

لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ "

قال الأب في هدوء وهو يبتسم : اعلم يا بني أنّ كل فرد في المجتمع مهيّأ لعمل ما ، وقد أدرك القدماء هذه الحقيقة؛ فالمرءُ مهيّأ لما خلق ، وليس ميسّراً لما يستطيع أن يصل اليه ، أو لما تطمع نفسه فيه، وأما وصوله إلى هذا من خلال الوساطة ، أو من خلال المحسوبية ، فهو اعتداء على حقوق من هم أجدر من جهة ، وهو تثبيط لهمم هؤلاء من جهة ثانية ، وهو عوق لتقدّم أمته من ناحية ثالثة،

وهو إتاحة للأمم الأجنبية أن تفوقها من جهة أخرى ،.. وأمّا وضع الفرد في موقع يناسبه فهو وضع للحق في نصابه ، وهو وضع للمقدرة في مكانها ، ومتى ما تحقّق هذا للأمة ، أمكن التفاؤل بمستقبلها . والاستبشار بتطورها ؛ فقل معي إذن: طوبى للأنقياء المستنيرين الذين لا يمشون في ركاب الوساطة إلاّ بالحق ، وأمّا من يمشي في ركابها دون حق ، فهو آثم قلبه ، بل آثم لسانه الذي يتحدث بها ، بل آثمة رجلاه اللتان تسعيان من أجلها !

**قال فَهْم** في حدة : لكن واقع الحال يقول : طوبى للمتسلقين المتملقين ، الذين استغلوا الوساطة أبدع استغلال ، فوصلوا بها الى سطح القمر قبل "آرمسترونج" بسنوات ، ولشد ما يغيظني من نظنهم أنقياء مستنيرين ، وإنّ بعضهم لرجال دين!

الى ضرر الوساطة ، ويشرحون للناس عواقبها الوخيمة ، لكنهم في حياتهم الخاصة لا يتورعون عن السير في ركابها، وحين نواجههم بسوء ما يفعلون ، هناك نسمعهم يحتجون بحجج واهية ، ويتذرعون بذرائع متهافتة ، كالقول : إنه أحد الأقرباء أحرجني ، أو إنه أحد الأصدقاء ألحّ عليّ ، فما تقول في هؤلاء : أليس ذنبهم بألف ذنب بالقياس الى غيرهم ؟!

قال الأب محاولا التخفيف من حدة ابنه : ألا إنّ هؤلاء ليسوا بأنقياء ولا مستنيرين ، ولو كانوا حقاً كما تقول ، لما مشوا في ركاب الوساطة ، وإنْ اضطروا اليها اضطراراً ، ولفعلوا في حالة الاضطرار مثل ما فعل الجاحظ قبل ألف سنة أو يزيد ، ولما بالَوا بأن يتلقوا الشكر المر ، على نحو ما تلقى !

قال فَهْم مستنكراً : إني لأعجب منك ؛ إذ تقفز من

الحاضر الى الماضي ، وتخلط الجد بالهزل، وتحشر الجاحظ الساخر في هذا الأمر الخطير ، فلست أدري ما علاقته به ؟!

قال الأب ضاحكاً : لقد أدرك هذا المفكر العظيم مبكراً إضرار الوساطة بالمجتمع ، وآية هذا أن رجلاً جاءه ذات يوم ، ثم رجاه أن يتشفع له عند صاحب من أصحابه ، فلما اضطره الى ذلك ، كتب له رقعة، وختمها ، ثم أعطاه إياها ، فلما خرج الرجل من عنده ، فضَّ الورقة ، وإذا الجاحظ قد كتب لصاحبه "كتابي اليك مع من لا أعرفه ، ولا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك " ، فرجع الرجل اليه من فوره ، وحينئذ أدرك الجاحظ ما حدث ، فسأله : كأنك فضضت الورقة ؟!

قال : نعم ! فقال الجاحظ محاولاً التخلص : لا يضيرك ما فيها ، فإنه علامة لي إذا أردت العناية

بشخص فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ولعنك ، قال الجاحظ سكرا !:ما هذا ؟! قال الرجل : هذه علامة لي إذا أردت شكر شخص !

قال فَهْم باسماً : حقاً أنه شكر مر ! ولكن أين نجد مثل بعض القدماء في نقائهم وإبائهم ؟! .. أين نجد مثلهم في هذا الزمن العربي المتردي ، الذي شاخ حتى انحنت قامته ، واستكان حتى تطأطأت هامته؟!

قال الأب : بل هم موجودون في كل زمان ومكان ، ولكنهم في هذا الزمن قليل ، وهم على قلتهم تجد الواحد منهم كالقابض على الجمر ؛ ذلك أنه مغلول اليد ، مبحوح الصوت ، ضعيف المكانة ، ينادي بأعلى صوته منبهاً الى ضرر الوساطة ، فلا يأبه له أحد ، وكأنّ نداءه صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ! .. أجل يرى نفسه ينادي ، فيذهب نداؤه سدى ، إذ لا يسمع له صدى ، ولا يجد جواباً ،

سوى جواب الشاعر القديم ، يقول له عبر قرون :

"لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً

ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي"

* * *



## ٨- ماذا حدث للصحافة ؟!

قال فَهْم وهو يلقي صحيفة من يده في شيء من الضجر : . لا شك أنّ صحافتنا العربية قد تطورت كثيراً من ناحية فنية ، ولكنها تراجعت تراجعاً كبيراً من ناحيتين !

قال الأب متسائلاً : وما هما؟!

قال فَهْم : أما أولاهما فتتعلق بالكتابة ، ذلك أنّ هذه الصحافة ، وإنْ أسهمت سابقاً في إبراز عدد من الكتاب الموهوبين ، قد تراجعت أخيراً ؛ إذ أخذت لا تعني باجتذاب كل كاتب قدير ، أو كل مفكر مثقف مستنير ، وإنّما رضيت بأن تفتح صفحاتها لبعض الأدعياء المنافقين ، الذين تسلّقوا بعض أعمدتها اليومية والأسبوعية ، أو تسنّموا رياسة تحريرها ، ثم راحوا يصولون فيها ويجولون ، محاولين إيهام عامة القراء أنهم كتاب كبار ، مع

أنهم في الحقيقة ليسوا من الكتابة في شيء، وليست الكتابة منهم في شيء، وإنّما جُلّ بضاعتهم منها الثرثرة الفارغة أو الكلام الهراء.

قال الأب: والناحية الثانية ؟!

قال فَهْم: وأما الناحية الثانية فتتعلق بحريتها، فالغريب العجيب أنّ هذه الصحافة قد بدأت بداية حرّة الى حد كبير، وخير مثال على هذه الحرية صحافة مصر في العشرينيات، فقد تعدّدت صحفها تبعاً لتعدّد أحزابها، وقد كان طه حسين مثلاً، وهو من حزب الدستور، يستطيع أن ينشر مقالات عنيفة، ينقد فيها زعيم حزب الوفد سعد زغلول، وهو رئيس للوزراء، أو رئيس لمجلس النواب، على حين كان صديقه العقاد على النقيض منه، ينتمي الى حزب الوفد، وقد كان يستطيع أن ينشر مقالات عنيفة يهاجم فيها زعيم حزب الدستور عدلي يكن، وهو رئيس للوزراء، أو

يهاجم غيره من كبار المسؤولين ، حتى شاع أن العقاد كان يستطيع إسقاط الوزارة بمقالة من مقالاته النقدية العنيفة ، أما الحرية الثقافية فقد كانت متاحة فيها ؛ ممّا أدّى الى معارك خصبة شهيرة ، بين الأدباء والمفكرين ، على نحو ما نعرف جميعاً ، .. نعم هكذا كانت حال صحافتنا العربية في الماضي ، فأين تلك الحال منها الآن ؟! وهي الآن حال تسر العدو ولا تسر الصديق ؛ ذلك أن مساحة الحرية فيها قد ضاقت ضيقاً ، لا يكاد يمكّن الصحف من التزام الصدق في القول ، أو إذاعة الحقيقة في القضايا ، أو الزعم بأنها حرة نزيهة ، حتى إنّ تعريف (كليمنصو) للصحافة ، لا يكاد ينطبق عليها ، وهو تعريف استطرفه واستصوبه ؛ إذ يجمع بين الصحة والبساطة ، وإن كنت أحب أن اعرف رأيك فيه ، بل أحب أن أعرف رأيك في حرية الصحافة عامة .

قال الأب : وكيف عرّف كليمنصو الصحافة ؟

قال فَهْم : لقد اكتفى بالقول عنها : إنها حبر وورق وحرية ! فما رأيك في كلامه : أتؤيده أم تعترض عليه ؟

قال الأب : صدق كليمنصو ؛ الصحافة حرية وحبر وورق ، وإنْ هي سُلبت الحرية بقيت حبراً على ورق ليس غير ؛ ذلك أن حرية الصحافة تتطلب منها أن تنشد الحقيقة ونشد انها يقتضي منها أن تكون مرآة صافية : تعكس مشاعر الناس وهواجسهم ، وتصوّر همومهم ومشكلاتهم ، وتنقل رغباتهم وتطلعاتهم ، وتعرض في أمانة وجراءة لآرائهم وانتقادهم ، ومتى ما فعلت الصحافة هذا كله ، أصبحت وسيلة هادفة للإصلاح ، وأضحت لسان الشعب الناطق ، واستحقق بجدارة لقب صاحبة الجلالة ، وكانت بحق السلطة الرابعة .

قال فَهْم : وإن كانت غير حرّة ؟

قال الأب : أمَّا حين تكون الصحافة مقيّدة ، فإنها تكون رجع صدى لأصوات مقيِّديها ، فتثني عليهم في كل حال ، وتسلِّط الأضواء الساطعة على الجيد من أعمالهم ،وتغضي عن ذكر هفواتهم وعيوبهم ، وتتجاهل مشاعر الناس وآراءَهم ، وتهمل تصوير همومهم ومشكلاتهم ، ولا تصغي لشكاتهم وانتقادهم ، ومتى ما فعلت الصحافة هذا كله ، أضحت حبراً على ورق حقاً ، وانقطعت الصلة بينها وبين قلب الشعب ، وكانت وسيلة خداع وتضليل ، وأسهمت أبشع إسهام في تأخر الوطن وتخلفه .

قال فَهْم : وإني لأتساءَل أحياناً : متى تكون الصحافة حرة : أعندما يملكها نفر من الناس أم عندما تملكها الدولة ؟

قال الأب : لا ريب أن الصحافة تكون أقرب الى الحرية عندما تملكها فئة من الناس ؛ لأنها في

هذه الحالة ستستجيب لدواعي المنافسة ، وستندفع في تطوير نفسها نحو الأفضل ؛ وذلك كي تحقق طموح أصحابها وآمالهم ، وهذا التطوير لا يكون إلاّ وفق ما يريده الشعب المحب بطبعه للحرية ، لأن القول الفصل سيكون رضاه عنها ، وإقباله عليها ، وأما إذا كانت الصحافة مملوكة للدولة ، فستنعدم حينئذ المنافسة ، وسيشعر المحررون أنهم موظفون ليس غير ، وأنّ همهم الأول هو رضا المسؤولين ، وتسلم رواتبهم في كل شهر ! وخير شاهد على صحة ما نقول الصحافة في الدول الديمقراطية الكبيرة ، من أمثال دول أوروبا الغربية، والولايات المتحدة واليابان ، فهي صحافة حرة دون ريب ، وهي صحافة لا تملكها الدولة ، وإنما يملكها ما يسمى القطاع الخاص ، فنحن ما زلنا بين حين وحين نسمع أنّ هذه الصحيفة العريقة ، يعرضها صاحبها للبيع ، وأن هذا

المليونير قد اشترى صحيفة معروفة ، وأن ذاك يملك مجموعة من الصحف المشهورة .

قال فَهْم : إذن فالصحافة تكون حرة، إذا كانت ملكيّتها خاصة .

قال الأب معترضاً : لقد قلت :إن الصحافة تكون أقرب الى الحرية ، إذا كانت تملكها جهة خاصة، ولكني لم أقل : إنها تكون حرة في هذه الحالة. والحق أنّها لن تكون حرة البتة ،إلاّ إذا كانت الدولة ديمقراطية النظام ، وتتيح لها الحرية المنشودة ، وأمّا إذا لم يكن النظام ديمقراطياً ، فسواء على الصحافة : أملكتها الدولة أم ملكتها فئة من الناس، ولن ينفعها اقترابها أو بعدها من دار محبوبتها "الحرية" ؛ لأنّ حالها معها تكون عندئذ كحال عبدالله بن الدمينة مع دار محبوبته ، إذ قال :

على أن قرب الدار خير من البعدِ"

"على أنّ قرب الدار ليس بنافعٍ

إذا كان من تهواه ليس بذي ودِ"

أجل : لن ينفع الصحافة شيء في سبيل حريتها ، إذا كانت الدولة غير ديمقراطية ؛لأنّها تظل في جميع أحوالها مسلوبة الحرية ، ويكون كتابها فرسانا ، ولكن من طراز "دون كيشوت" ،أو من طراز عبد الله بن قيس الرّقيات ، وهو يركب فرسه ، التي يقول عنها :

"سواءٌ عليها ليلها ونهارها"

***

# ٩- مَقُولة " توفيق الحكيم "

قال فَهْم وهو يعيد مسرحية " أهل الكهف" الى مكانها في المكتبة : ـ لله درّ توفيق الحكيم ، ما كان أجمل فنه القصصي ، وما كان أشد إعجابي به!.
ولكن حماستي له قد فترت كثيراً ، حين قرأت ما كتبه بعد عام ١٩٧٠ ؛ وذلك إذ ورّط نفسه في السياسة توريطاً ، وكان قد بلغ من الكبر عتياً ، والغريب أنه قد أنهى حياته الفكرية بآراء ، كان قد ردّد أكثرها في بداية حياته الفكرية ، وهي آراء يقال : إنه في معظمها قد تأثر أستاذه لطفي السيد ، على أنّ بين هذه الأراء رأياً بعينه ، ما زلت أذكره جيداً ، وما انفك يدعوني الى تأمله بين حين وحين ، ولست أدري : أصواب هو أم خطأ؟بل لست أدري : أتبدو المفاضلة فيه منطقية سائغة أم تبدو متعذرة غير جائزة ؟!

قال الأب في اهتمام : وما هو ؟!

قال فَهْم : أنكر أنه في كتابه "عودة الوعي" أو في كتابه " وثائق في طريق عودة الوعي" قد ردّد عبارة ، وهو يهاجم عهد عبد الناصر . أما العبارة فتقول "... إنّ الدكتاتورية خير من الديمقراطية المزيّفة" ، وقد استسيغ القول : إن الديمقراطية خير من الدكتاتورية ، ولكن إذا كانت الديمقراطية المزيّفة هي الدكتاتورية نفسها ، فلست أفهم كيف يمكن أن يفضل الشيء نفسه بدرجة أو بدرجات؟!

قال الأب : كلا ، ليست الديمقراطية خيراً من الدكتاتورية دائما ، بل إن الدكتاتورية العادلة قد تكون خيراً للشعب من الديمقراطية في بعض الأحيان ، وذلك إذا لم يكن هذا الشعب على شيء من النضج الفكري ، أو كان لا يقدّر الحرية المتاحة له حق قدرها ، ولا يحسن استغلالها الاستغلال الصحيح ، ومثال ذلك الشعوب العربية

والإسلامية في أواخر القرن الماضي ، وأوّل هذا القرن ، فقد كانت على درجة كبيرة من التخلف الحضاري والفوضى ، حتى إنها ألِفَت الظلم واستمرأت البطش ، وكان كبار المفكرين فيها من أمثال : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، والكواكبي قد نذروا حياتهم لإنهاضها ، ومع ذلك نجدهم في سبيل هذا الإنهاض قد رفعوا شعاراً يقول : " لا يصلح الشرق إلاّ مستبد عادل ، أو لا يصلح الشرق إلاّ مستبد مستنير" هذا من جهة ، .. ومن جهة أخرى ، لست أوافقك على أن الديمقراطية المزيفة هي الدكتاتورية عينها؛ فهما وإن تشابهتا في الجوهر ، تختلفان في الشعور والمظهر ، وهذا الاختلاف ليس بالقليل ، بل هو يكفي للموازنة والمفاضلة ؛ .. إنما الديمقراطية المزيفة هي دكتاتورية شعرت بأنها قبيحة غير مقبولة ، وبأن الديمقراطية هي المنى ، أو الأجمل

في نظر الناس ، فقرّرت أن تتبدى لهم كمثلها ، وأن تتزيّا لهم في زيّها ، ولكن ليس من خلال التحوّل في طبيعتها وسلوكها ، وإنما من خلال التغيرُّ السطحي في ملامحها ومظاهر شكلها ، وذلك شأن الأمة السوداء ، التي بهرها جمال سيدتها ، فانتهزت فرصة غيابها ذات مرة ، وقررت أن تتشبّة بها في لحظة من اللحظات ، فعمدت الى "المكياج" الملائم ،واستعانت بالمساحيق والأصباغ الملونة ، ولبست بعض ثيابها، فما تقول لها لو نظرت اليها ، وإذا هي تشبه سيدتها شيئاً ما ؟!

قال فَهْم متعجِّلاً : أخاطبها بقول المتنبي :

"حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ

وفي البداوة حُسنٌ غير مجلوبِ"

قال الأب ضاحكاً : بل ينبغي أن تخاطبها بقول عمر ابن الخطاب لإحدى الجواري :

قال فَهْم : وما ذاك ؟!

قال الأب : يُروى أن عمر وهو خليفة قدصادف في الطريق امرأة تلبس لباس الحرائر ، ولما تأملها تبين فيها جارية يعرفها ، وحينئذ علاها بالدِّرَّة قائلاً :

"أتتشبّهين بالحرائر يا لَكاعِ؟!"

قال فَهْم مستنكراً : اسمح لي أن أشك في هذه القصة ؛ ذلك أن عمر كان أكثر استنارة ، وأكثر عطفا من أيّ رجل ينكر على امرأة بائسة مستعبدة رغبتها في التحرر ، أو محاولتها السير في طريق الحرية !

قال الأب مقاطعاً : كلا ، لا ينبغي أن تنظر الى الأمر من هذا المنظار ، وإنّما ينبغي أن تتنبّه الى أن المجتمع كان في ذلك العهد يقبل من الجاريّة ألواناً من السلوك ، لا يقبلها البتة من العربية الحرة ، وسبب استنكار عمر أنّ وضع المرأة كان

وضع جارية ، وأنها كانت تتصرف في المحافل العامة تصرف جارية ، على حين كانت ترتدي لباس الحرائر ، وهذا من شأنه أن يخدع كثيراً من الناس بالظاهر ، بل من شأنه أن يُطمع ذوي النفوس المريضة بأن تتصرّف كل حرّة مثل تصرفها ، ومن شأنه أن يشجع بعض النساء الحرائر على أن يأتين مثل سلوكها ؛ مما يعود على المجتمع بالعاقبة الوخيمة ، هذا هو الذي أنكره عمر منها ، فهو إذن لم ينكر رغبتها في التحرر الحق ، أو محاولتها السير في ركاب الحرية ، وكيف ينكر هذا ، وهو الضارب لابن عمرو بن العاص . والقائل له قولته المشهورة :

"متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً " ؟!

قال فَهْم : الآن فهمت ، ولكني لم أفهم بعد علاقة هذه الجارية بحديثنا عن الديمقراطية المزيفة !

قال الأب ضاحكاً : ما أجدر كل شعب يرى حكومته تنزع الى الديمقراطية المزيفة بأن يعلوها بدرّة تشبه درة عمر، أو بدرّة عصرية مناسبة ، قائلاً لها:

"أتتشبّهين بالحرائر يا لكاع"؟!

* * *

## ١٠- مفاجأة !

قال فَهْم وهو يتأمل صوراً لبعض القادة الروس في مجلة أمامه : أرأيت الى هذه المفاجأة الهائلة ، التي ذهل لها العالم جميعه ؛ فقد صُعق لها الأنصار والأصدقاء ، وصفّق لها الخصوم والأعداء ، ودُهش لها المراقبون المحايدون !

قال الأب متسائلاً : أيّ مفاجأة تعني ؛ فما أكثر ما ولد من مفاجآت هذه الأيام ؟!

قال فَهْم : وهل ثمة مفاجأة حدثت في السنين الأخيرة، أدعى الى الدهشة ، من هذه المفاجأة ، التي طلعت بها روسيا ، ودول شرقي أوروبا ، حين قرّرت بغتة التخلي عن عزلتها المختارة ، والانفتاح على سائر العالم ، وإذا هذه الشعوب ، التي كنا نظنها تنعم في عيشة راضية ، وتقيم في جنة وارفة ، تريد أن تهرب من جنتها الاشتراكية

بعضها تحاول هذا من خلال الانفصال ، وبعضها تحاوله من خلال الاتحاد ، وبعضها تحاوله من خلال تغيير النهج السياسي ، .. وإذا هي تتشوّق إلى تنسّم عبير الحرية، وتتشوّف إلى الأخذ بالتعددية الحزبية ، وتتلّهف على أن تعيش الحياة ، كما تعيشها الشعوب الغربية ، وإذا هذا الستار الذي كان يوصف بأنه حديدي ينزاح كأيسر ما ينزاح الستار ، وإذا سور برلين ينهار ، كأوهى ما تنهار الأسوار ، فما رأيك في ما حدث ؟! وكيف تقول فيه ؟!

قال الأب : لا عجب في أن ينهار البناء ، إذا كان يقوم على أساس من الماء ، ولا ريب أن الحياة في ذاتها ظاهرة غريبة جداً ، بل هي أعجوبة الأعاجيب ، حتى إن عقل الأريب حين يتأملها في عمق ، لا يكاد يصدق أنها حقيقة واقعة ، وقد عبّر عن هذا شكسبير أحسن تعبير ، حين قال

عنها :" .. يا لها من خرافة ، يحكيها معتوه !" ؛ ذلك أن الحياة لغز يتحدى العقول ، ويتعذّر على أي عقل حله ، مهما تكن قوته ، كما يرى "بيرتراندرسل"! ؛ فهي بالغة التعقيد ، متعددة الجوانب ،تتراءى لأبنائها بمئات الوجوه ، وإذا كان الناس أيضاً يتخالفون في العقول والنفوس ، ويتباينون في الأذواق وا [illegible] ت ، فمن الطبيعي إذن أن يتخالفوا في رؤيتهم للحياة ، وأن تتعدد مذاهبهم في فهمها وعشقها ، وقد أدرك هذه الحقيقة الظاهرة اليسيرة الشاعر العربي القديم ، حين قال : . "لكل امرىء في ما يحاول مذهبٌ" ، على حين قال شاعر آخر :

"ومن مذهبي حب الديار لأهلها

وللناس فيما يعشقون مذاهبُ"

وإذا كان الأمر كذلك ، فمن أظلمُ ممّن يريد أن يقيّد حرية الناس ، وأن يجبرهم على ترك مذاهبهم

المختلفة ، وأن يلزمهم مذهباً واحداً بعينه؟! .. من أشدّ خطأ ممن يريد أن يجمع الناس في واحد ، كي تغدو ملايين العقول عقلاً ، وملايين النفوس نفساً ، وملاين الأذواق ذوقاً ، تفكرّ وتحب وتشعر بطريقة واحدة ، وكأنها القطيع في البّرية ؟! لا شك أنّ هذا أمر مستنكر عندما تحاوله فئة من الفئات، ذلك أنه من جهة متعذّر مستحيل ، وهو من جهة أخرى أمر لا يريده الله ، وهو الذي لو أراده لما كان عليه متعذّراً ، ولا منه مستنكرا ، كما أشار الشاعر القديم إذ قال :

"ليس على الله بمستنكرٍ
أن يجمع العالم في واحدٍ"

قال فَهْم : يخيل إليّ أنّ ما تنعم به المجتمعات الغربية من رقي ورخاء ، يعود إلى أخذها بالديمقراطية الحقة ، هذه الديمقراطية ، التي لا تقوم على الادّعاء،وإنما تقوم في الأساس على التعددية

السياسية الحرة ، .. ويخيل إليّ أنّ هذه التعددية الحزبية وليدة جديدة ، تمخضّت عنها عبقرية عصر النهضة ، فولدت خلال القرنين الأخيرين !

قال الأب مقاطعاً : تَعَدُّدِيَّةٌ .. تعددية ؛ لقد أشاعت وسائل الأعلام هذه الكلمة ، ولست أدري لمَ أضيق بها ذرعاً من الناحية اللغوية ؟! كأنها لا تكتفي بالمصدر المعروف للكلمة "تَعَدُّد" فجعلت منه مصدراً صناعياً أيضاً بزيادة الياء المشدّدة والتاء ، ولكن مهما يكن الأمر فأحب أن أقول : إنّ التعدد السياسي قديم قدم المجتمع الانساني نفسه ، ولكن هذه التعددية القديمة كانت تحكمها القوة الغالبة ، أو تحتكم في أمرها إلى شريعة الغابة ؛ ذلك أننا لو عرفنا تاريخ أي مجتمع بشري على حقيقته لوجدناه سجلاً أحمر ، مليئا بأخبار العسف والتنكيل ، وسِفْراً قانيا ، حافلاً بأحداث المجازر وإراقة الدماء ؛ فنحن لو أخذنا المجتمع

الأوروبي مثلاً ؛ وذلك بوصفه المجتمع المعاصر الأرقى ، وتأملنا تاريخه منذ أقدم بداياته ، واستثنينا حقبة ذهبية من تاريخ الإغريق خاصة لوجدنا أن هذا المجتمع كان يمور بخطوب الفتن والتمرد ، الناجمة من التعددية السياسية ، المحتكمة الى القوة والبأس ، إذ نجد الحكام يقمعون دون رحمة الثورات والاضطرابات ، ويبطشون دون شفقة بالخصوم والمعارضين ، على حين نجد الخصوم قد ينجحون في الإطاحة بالحكام ، أو قد ينتقمون منهم باغتيالهم شر اغتيال .

قال فَهْم : هل لك أن تضرب لي مثلاً على هذه التعددية ، وقد احتكمت إلى المنازعة الدموية ؟

قال الأب : ثمة مثال مشهور على هذا من الإمبراطورية الرومانية ، فقد أتى عليها حين من الدهر، كانت تتجاذبها قوتان متنافستان : قوة

يرأسـها (بـومبـي) ، وأخـرى يرأسـهـا (يـولـيـوس قيصر) ، وقد أدى التنافس بينهما إلى الالتقاء في ساحـة القتـال ، فكان أن انـتـصـر قـيصر علـى خصمه، الذي فرّ هارباً إلى مصر ، حيث استقبل على شاطئها بالقتل ! وقد تألق نجم قيصر هذا ، وتزوّج (كليوبترا) ، وتوالت انتصاراته العسكرية ، ولكن ثمة قوة سياسية كانت تكنّ له العداء في الخفاء،ولأنها كانت لا تستطيع مواجهته في ساحة القتال ، فقد دبّرت مؤامرة للقضاء عليه بالاغتيال ، حتى إذا دخل مجلس الشيوخ ذات يوم ، وهـو في قمة قوته ومجده ، وإذا بخنجر (بروتوس) وخناجر زملائه تنقضّ عليه انقضاضاً ، وإذا هي ترديه بعد أن تثخنه جراحاً ، ولكن أنطونيوس صديق قيصر يستطيع أن يـهزم المتآمرين ؛ ليتـقاسـم هـو وأغسطس ابن أخت قيصر حكم الامبراطورية ، ولكن ما أسرع أن دب الخلاف بينهما. وما أسرع

أن تمكن أغسطس من قهر أنطونيوس ، والاستئثار بالحكم وحده ، وعلى هذا النحو ظلت الأمور تجري في أوروبا ، إلى ما بعد عصر النهضة ، إذ بقي الحكم للأقوى ، والأقدر على سفك الدماء : ولكن عصر النهضة حين أقبل أخذ ينير الشعوب الأوروبية ، ويثقفها ، وإذا هي تفقه نفسها شيئًا فشيئًا ، وإذا هي تدرك أنها مصدر كل سلطة ، وأن الحاكم ينبغي ألاّ يعتلي الحكم إلاّ بملء إرادتها ومشيئتها ؛ وقد تجلّى هذا الوعي لدى الشعب الفرنسي خاصة ، إذ أنضجته كتابات الكبار من مفكريه حول حريته وحقوقه ، وعقده الاجتماعي ، وكان من أبرزهم فولتير ومونتسيكو وجان جاك روسو ؛ فكان أن ثار ثورته الشهيرة بلويس السادس عشر ، الذي كان يعتقد أنه الدولة، وأن الدولة هو ! وقد زحفت جماهير الشعب الفرنسي على سجن الباستيل

العتيد زحفاً، وأخذها الهياج والابتهاج ، وهي ترى (المقصلة) الجديدة ، التي اخترعت خاصة لقطع عنق لويس ، ولقطع عنق زوجه ماري أنطوانيت !

قال فهم مقاطعاً : أرى المؤرخين يكْبِرون من شأن هذه الثورة خاصة ، إذ يقرون أنّ لها خطرها في ظهور التعددية الديمقراطية ، فهل لك أن تبين لي كيف حدث ذلك ؟

قال الأب : لقد أجّجت الثورة الفرنسية وعي الشعوب الأوروبية ، وأدخلتها في حروب ضروس ضارية ، لم تخرج منها إلاّ وقد آمن بعضها بالتعددية الحزبية ، المحتكمة الى استفتاء الشعب عامة ، بعد أن تيقنت أخير أنْ لا خلاص لها من التعددية الدموية المتصارعة ، التي تلحق بالمجتمع أفدح الأضرار، إلاّ بتحويلها إلى تعددية نافعة مشروعة، تمتثل لرأي الشعب فيها ، من خلال الانتخابات الحرة النزيهة ، .. وها نحن أولاء نرى شعوب

الأرض كلها وهي بين كلا النوعين من التعددية :
شعوب ما زالت تتحكم فيها التعددية القديمة ؛
فهي تطلع على العالم بمفاجآت دموية بين حين
وآخر ، وشعوب قد أخذت بالتعددية الديمقراطية
الحقة ؛ فهي تنعم بالهدوء والعدل والرخاء ، وقد
أَمِنت شر الصراع الداخلي والثورات ! ولا شك
عندي أن الغلبة في النهاية للتعددية الأخيرة ، بل
إنّ هذه الغلبة هي حتمية تاريخية ، وهي أمر قادم
لا ريب فيه ، على الرغم من الدول الديمقراطية
الكبيرة ، التي تزعم في الظاهر أنها تحارب
الدكتاتورية أو التعددية الدموية ، ولكنها في
الحقيقة لا ترغب لسائر الشعوب بالنهج
الديمقراطي الحق ؛ لأن منفعتها تكمن في أن تظل
هذه الشعوب متخلّفة متخبطة ، تبيح لها ثرواتها ،
وتشتري منها منتوجاتها ، .. أجل : إن غلبة
الديمقراطية هي حتمية تاريخية برغم أوروبا

وأميركا لأن أكثر الشعوب قد بدأت تأخذ بأسباب العلم والتقدم ، وبدأت تفقه نفسها الفقه الصحيح ،وها أنت ذا قد بدأت حديثك الليلة عن هذه المفاجأة المذهلة ، التي طلعت بها روسيا ، ودول أوروبا الشرقية ، إذ نبذت الأحادية الحزبية ، وقرّرت العودة إلى التعددية الديمقراطية، وقد رأينا كيف أنّ أحد حكامها ، قد حاول الوقوف في وجه رغبة شعبه ، وإذا هذا الشعب يثور به كأنه البركان ، وإذا مصير "شاوشسكو" لا يقل بشاعة عن مصير لويس السادس عشر !

قال فَهْم : وهل عرف مجتمعنا العربي هذه التعددية في القديم ؟!

قال الأب مندفعاً : نعم ... نعم ، لقد عرفها منذ أقدم بداياته ، فما إنْ مات النبي الكريم ، حتى انقسم أولو الأمر حزبين كبيرين ، هما الأنصار والمهاجرون ، وكان كل منهما يرى نفسه أحق من

الآخر في الحكم ، ولست أنسى هنا ما أورده المؤرخ الثقة الطبري حول اجتماعهما في سقيفة بني ساعدة ، وما دار بينهما من جدال ، كاد يصل إلى حد الاقتتال ، ومع أنّ بعض الأنصار قد سلّموا في الأمر لقريش ، فإن بعضهم الآخر بزعامة سعد بن عبادة قد أبوا التسليم ، وظلوا يعارضون إلى أن قتل سعد ، قتلته الجن في ما زعم. وقد استبعد الأنصار عن الحكم ، ولكنهم ظلوا يشعرون بالسخط والظلم ، كما يتجلى هذا في سيرة الشاعر الأحوص وشعره ، ومع أنّ الحكم قد آل إلى قريش ، فإنها انقسمت في أمره؛ مما أدى الى صراعها الدموي بعد قليل ، إذ نشب بين علي ومعاوية في "صفين" ، ونشب بين علي والزبير في معركة الجمل ، حتى إذا جاء حادث التحكيم، وإذا الأمة الإسلامية تخرج منه شيعاً متعددة متنازعة ، ظلت تتصارع على الحكم قروناً

طِوالاً ، يحكم الأمويون فيقمعون كل ثورة يقوم
بها بنو هاشم أو الخوارج أو الزبيريون ، وينتصر
بنو هاشم أخيرا على الأمويين ، فإذا هم يفتكون
بهم أشد الفتك ، حتى إنهم لا يتورعون عن نبش
قبورهم ، ثم يحكمون فإذا هم ينقسمون عباسيين
وفاطميين ، وإذا الفئتان تتصارعان تصارعا دام
سنين ، ثم تسقط الخلافة الإسلامية بيد هولاكو ،
ويظهر المماليك في المجتمع العربي ، فإذا نظريات
الخلافة تسقط على اختلافها، وإذا حق الحكم يبدو
ظاهراً جلياً ، فهو للأقوى ، والأقدر على البطش
بالخصوم ، ولست أنسى هنا أيضاً هذا المثال
المشهور على ذلك ، فحين اغتال بيبرس وبعض
أنصاره السلطان قطز، وهو في قمة مجده بعد
انتصاره في "عين جالوت" ، على نحو يشبه اغتيال
بروتوس وزملائه ليوليوس قيصر ، صاح واحد من
المماليك متسائلا : أيكّم هو الذي قتله ؟! وحين

أجاب بيبرس أنه القاتل ، هتف له قائلا : " أنت أحقنا إذن بالجلوس مكانه يا خوند!".

أجل: لقد أسفرت حادثة التحكيم اليسيرة في ظاهرها عن نتائج خطيرة في أبعادها وباطنها ، وهل تاريخ مجتمعنا الإسلامي منذ أربعة عشر قرناً إلاّ صراع دامٍ بين الأموية والهاشمية والزبيرية ؟! وهل هو إلاّ قتال مرير بين الشيعة والسنة والخوارج ؟!

قال فَهْم : الغريب أنه ما إن انتفضت دول أوروبا الشرقية ، وعادت الى الأخذ بالتعددية الحزبية حتى أعلنت بعض الدول في العالم الثالث أنها ستأخذ بالتعددية ، ويلاحظ أنّ بعضها قد أخذت بها حقاً ، ولكنها أخذت بتعددية يسيطر فيها حزب كبير على أحزاب صغيرة ، فما رأيك في هذا النوع من التعددية؟!

قال الأب باسماً : يفضل المفكرون أن يكون ثمة

حزبان متوازنان أو أكثر ، كما يلاحظ في الدول الديمقراطية المتقدمة ، ولكن لا بأس من هذه التعددية ، التي ذكرتها على العالم الثالث ، فقد تكون تمهيدا ضرورياً للديمقراطية الحقة ، لدى مجتمعات أَلِفَت الهيمنة والتفرد في الحكم عبر قرون ، وقد تكون حقبة لا بد منها لتتمرّس الدول النامية في الحرية ، والحق في أن تُستَفتَى ، .. أجل لا بأس بهذه التعددية بادىء ذي بدء ، فلو سألت الشاعر عنها بالقياس الى التعددية القديمة لأجابك :

"رويدك بعضُ الشر أهونُ من بعضِ "

* * *

# ١١ - برِسْترويكا عربية !

قال فَهْم وقد فرغ من قراءة مقال فكري حول إعادة البناء : لله درّ ذلك المفكر العربي القديم ، الذي قال: " إن المغلوب مولع بتقليد الغالب " ؛ ذلك أنّه قد أصاب حقيقة من حقائق الناس في حياتهم الدنيا ، وهي حقيقة لا يقتصر فيها التقليد على القشور والمظهر ، وإنّما يشتمل على شؤون الفكر والجوهر، أقول هذا لأني أعجب من بعض كتابنا في هذا العصر ، فما أشدّ إكبارهم للأوروبيين ! وما أسرع انبهارهم بكل ما يصدر عنهم ! حتى يخيّل اليّ أنه مامن دعوة يُدعى لها هناك ، إلاّ تجد لديهم استجابة ، وما من فكرة ينادي بها ثَمّ ، إلاّ تسمع لها عندهم صدى ! وخير مثال على ذلك ، هذه المفاجأة ، التي تحدثنا عنها في الحوار السابق ، والتي طلع بها (غورباتشوف) على

العالم، فقد شاعت هذه الكلمة الروسية التي ردّدها على ألسنة كتّابنا هؤلاء ؛ فلو سألتهم : ماذا يعرفون من الروسية مثلاً ؟ لأجاب أكثرهم ضاحكين : إننا لا نعرف منها سوى اليسير ، ولكنّ أطرف ما نعرف منها أن أسماء أعلامها تنتهي في الغالب بالمقطع "أوف" ! وأنّ كلمة "برسترويكا" التي أذاعها غورباتشوف تعني إعادة البناء ! ... وقد شغف هؤلاء بالكلمة ، حتى إنهم راحوا ينشرون المقالات الكثيرة ، يدعون فيها بحماسة إلى "برسترويكا" عربية ، ويؤكدون حاجتنا الماسة إلى أن نمشي في ركابها ، كما مشت دول أوروبا الشرقية ، ..أمّا أنا فلست أدري على وجه اليقين : أنحن في حاجة حقاً إلى برسترويكا أم نحن في غير حاجة ؟! ولذا أحب أن أحاورك الليلة في ذلك؛ فما تقول في الأمر ؟ وهل ترى المشي في ركابها ضرورياً حقاً لتقدمنا ؟!

قال الأب مُقَهقِهاً : صدق المَثَل : من يسمعْ يَخلْ " ،
لا أدري لماذا يحضرني الآن قول المتنبي :
"ألا كل ماشية الخَيْزلى
فدى كلِّ ماشية الهَيْدبى "

ربما لأنّ الإجابة عن سؤالك تستدعي الموازنة ؛ ذلك أنه في مسيرة البناء الحديث ، شتان ما بين شعب قد قطع شوطاً طويلاً ؛ لأنه خلال المسيرة قد غذّ الخطا ، أو مشى الهيدبى ، وبين شعب آخر لم يقطع شيئا مذكوراً ؛ لأنه خلالها ظلّ يتلكأ ويتباطأ ، ويمشي نائماً ، أو يمشي "الخيزلى"!

قال فَهْم مقاطعاً : ما أشد غرامك بالشعر ، وإني أنوي أن أحاورك فيه الليلة القادمة ، ولكنْ .. ها أنت ذا قد أخذت تنشد لي منه ما هو قديم غريب، فدع عنك الآن الهيدبى والخيزلى وأمثالهما من الألفاظ المتأبدة ، وحدثني بلغة عصرية مفهومة .

قال الأب وهو ينفث دخان سيجارته من فمه : تعلم أنّ معظم العالم في القرن الماضي قد استيقظ ، واذا أوروبا قد أمعنت في ثورتها الصناعية ، وإذا هي قد تقدمت تقدماً علميا هائلاً ، وقد مسّ هذا التقدم مختلف مناحي الحياة ، ومع أنّ التقدم قد عمّ دول أوروبا عامة ، فإنّ حظوظها منه قد تباينت بين دولة وأخرى ، وقد بدا في بداية هذا القرن أنّ أوروبا الغربية هي الأوفر حظاً ، ولكن ما إن قامت الثورة البلشفية في أثناء الحرب العالمية الأولى ، حتى أخذت روسيا تعنى عناية قصوى ببناء صناعتها ، وقد أحرزت تقدماً صناعياً ملحوظاً ، في عهد ستالين ، هذا الذي تُنشر الآن سيّئاته ، وتُطوى حسناته ! وبعد أن خرجت روسيا من الحرب العالمية الثانية ظافرة ، كوّنت هي ودول أوروبية شرقية كتلة واحدة ،ثم دخلت هذه الكتلة ودول العالم الغربي المتقدم في سباق علمي

وتكنولوجي مرير ، وقد استطاعت روسيا أن تكون واحدة من قوتين عظميين وحيدتين ، تتحكّمان في مصير العالم كله ، وإذن .. فإذا ظهر بعد أربعين عاماً من هذا السباق والبناء زعيم مثل "غورباتشوف "،وجعل يدعو إلى تقويم تجارب البناء ، وإعادة صياغتها . وتسديد النقص فيها ، وتلافي أخطائها ، والاستجابة لأشواق الجماهير وتطلعاتهم الى الحرية والانفتاح – أقول : إذا ظهر عندهم زعيم ، وراح يدعو الى هذا كله ، فإنّ دعوته دون شك تكون لها ما يسوّغها ! .. وأما عالمنا العربي فهو منذ القرن الماضي ما زال يحاول النهوض ، ولكن دون جدوى ، وما انفك يود اللحاق بركب الحضارة المتقدم ، ولكن دون سعي جدي .!و إني لأسألك : هل نظّمنا شؤون حياتنا تنظيما دقيقا ، كما فعلت اليابان مثلاً ، وهي التي بدأت محاولتها الجادة للنهوض معنا أو بعدنا ،

ذلك أنها بدأتها في عام ١٨٦٨ على وجه التحديد؟!

قال فَهْم : لا ؛ فما زالت الفوضى تضرب أطنابها في كل أمر من أمور حياتنا ، حتى خاطبنا شاعر معاصر بقوله :

" وكل أموركم بالعكس تجري

لها في السوء تنظيم فريدُ "

قال الأب : وهل تقدمنا في مسيرة النهضة تقدماً سريعاً جداً ، على نحو ما فعلت اليابان ، التي اختصرت الوقت بالإفادة من تجارب الدول الأوروبية ، فاستطاعت خلال أقل من قرن أن تلحق بها ، بل استطاعت الآن أن تكون منافساً متفوقاً عليها في ميدان العلم والاختراع ؟!

قال فَهْم : لا ، وإنّما ظللنا نتعثّر ونتخبط ويهدم المسؤول اللاحق ما بناه السابق ، بحجة التصويب والتصحيح ! حتى بدا أحياناً أنّنا ننتكس ونتراجع،

وأننا نمشي خطوة الى الأمام وخطوتين إلى الوراء ؛ ممّا دفع شاعراً آخر الى القول :

" الناس تمشي للأمام ونحن نمشي القَهْقرى"

قال الأب : وأعود الى روسيا ودول أوروبا الشرقية . فهل بنينا مثلهم الصناعات المختلفة ، بدءاً من شفرات الحلاقة ، وانتهاء بسفن الفضاء العملاقة؟!

قال فَهْم : لا !

قال الأب : وهل اعتنينا مثلهم بالأرض والزراعة، وحوّلنا الجبال والصحارى الى جنات خضراء يانعة؟!

قال فَهْم : لا !

قال الأب : وهل بنينا مثلهم اقتصاداً نعتمد فيه على الذات ، ونعوّل عليه في الشدائد والملمّات ؟ !

قال فهم : لا !

قال الأب : وهل أعددنا مثلهم أجيالاً من العلماء ،

زهّدناهم في الثروة والجاه ، وغرسنافيهم روح البحث ، واستعذاب العناء ، فإذا هم يتسابقون في الوصول الى الاكتشافات ، وإذا هم يتنافسون في تسجيل الاختراعات ؟!

قال فَهْم : لا !

قال الأب باسماً : إذن فنحن لم نبنِ مثلهم بناء يستحق أن يُعاد ، وإذن فنحن في حاجة ماسة الى بدء العمل الجاد ! وأما القول : إننا بنينا ، وإننا في حاجة الى إعادة البناء ، فهو خداع نفس ما بعده خداع ، وهو افتراء على الحقيقة ، يستحق صاحبه أن يجلد ثمانين جلدة ، وهو ادّعاء طريف ، شبية بادعاء الشاعر ، إذ يقول :

" أنا ما بنيتُ ولا تعبتُ وإنني

لأعدّ نفسي في طليعة من بَنى

* * *

يعيش الشعر الحر ، وأُد الشعر العربي الأصيل
ما رأيك أن ننتهز الفرصة ونصبح شاعريـن
كما فعل الكثير ؟



## ١٢- وَأْد شعر ؟!

قال فَهْم ، وهو يغلق ديوان المتنبي ، وقد بدا الاستحسان واضحاً في وجهه : عفا الله عن أبي الطيب ما أجمل شعره عامة ، وما أروع قصائده التي يعبِّر فيها عن ذات نفسه ، ويتغنّى من خلالها همومه ومشكلاته خاصة ، فبعض قصائده هذه لا تُملّ مهما تُقرأ ، كهذه القصيدة التي كنت أتأملها قبل قليل ، والتي مطلعها :

" من الجآذر في زِيّ الأعاريبِ

حُمْر الحلى والمطايا والجلابيبِ "

ولكن ألا ترى الى شعرنا الموزون المقفّى هذه الأيام : كيف ضعفت مكانته ، وتضاءلت أهميته ، وهان على الشعراء والقراء معاً ، إذ تراجع أكثر قائليه عن النشر ، وأما من تبقى منهم فإنهم ينشرونه على استحياء ، وفي أجواء من التثبيط

والاستنكار والاستهزاء ، على حين أن خصمه
الشعر الجديد قد تمكّن أخيراً من دحره ، وقدر
على حسره ، واستطاع أن يغلبه على الصحف
الأدبية والمجلات ، وإذا حبره يجري فيها أنهاراً،
وإذا هي تطالعنا به ليلاً ونهاراً ، فما رأيك في
الأمر ؟ وما الذي تقوله في هذا الشعر ؟!

قال الأب باسماً : ماذا ؟! أراك قد أخذت تسجع في
كلامك منذ اليوم ! ولكن .. حتى أنت يا بروتوس ،
حتى أنت أخذت تجاري هؤلاء الأدعياء، وتسمّي
هذا الهراء أو الغثاء الشعر الجديد ؟!

قال فَهْم متعجباً : ماذا ؟! أليس هو بشعر ؟! .. ولكن
مهما يكن هو فلا بد له من اسم ، وإني إذ سمّيته
الشعر الجديد ، إنّما قصدت أن أتخلص من هذه
الاختلافات الكثيرة في اسمه وصفته ، لأنّ من
الناس من يسميه الشعر الحر، ومنهم من يسميه
الشعر المرسل ، ومنهم من يسميه الشعر المنُطَلِق!

ومنهم من ينحت فيسميه (الشُّثْر) ! لأنه بين الشعر والنثر ، ومنهم من يسميه شعر التفعيلة ، وآخر اسم سمعته له هو الشعر المُتَفْعَل ! .. أجل: إنّما قصدت أن أهرب من هذه التسميات الكثيرة ، ولكن ماذا ؟! أليس هو بشعر ؟!

قال الأب جاداً : نعم ، ما هو بالشعر وما ينبغي له ، إنْ هو إلاّ كلام غامض ممجوج .

قال َفْهم وقد ازداد عجباً واستنكاراً : وي ! اخفض من صوتك ؛ كي لا يسمعنا بعض نقادنا المحدثين، فيتهموك حينئذ في ذوقك وثقافتك ! فإذا كنت لا تعدّ هذا الجديد شعراً ، وإذا كان الشعرُ الأصيل قد اختفى أو كاد ، فأين العطاء الشعري في هذه الحقبة إذن ؟! وهل يتفق أن يأتي حين من الدهر على جيل من الأجيال ، وإذا هو عقيم في الشعر ، وإذا الشعر عقيم فيه ؟!

قال الأب وقد رفع صوته : إذا لم يحدث هذا العقم

الشعري في الماضي ، فإنه قد حدث الآن ، في هذه الفترة ، وفي هذا الجيل ! نعم ؛ لقد مات الشعر العربي الآن موتاً ، أو قل : لقد وئد روحه وأداً ، وأدها هؤلاء المتسلّلون المتسلقون ، ثمّ راحوا ينشدون على قبره شعرهم ( المُتَفْعَل) أو شَثْرهم الغامض ، الذي لا يفهمه أحد ، .. بل لا يفهمونه هم أنفسهم ! وكانت النتيجة أن زهد الناس في هذا الشعر زهداً ، وازورّوا عنه ازوراراً، وكانت النتيجة أن الشعر العربي قد مرّ الآن بأزمة خانقة ، أزمة خطيرة قاتلة ، لم يمر بمثلها في القديم أو في الحديث !

قال فَهْم في دهشة : عجباً لك إذ ترى هذا الرأي ؛ ذلك أنّ روّاد هذا الشعر يذهبون الى نقيضه ، فَهْم يقولون : إنّهم قد لجأوا الى نهجهم الجديد في نظم الشعر لأنّهم وجدوا فيه تجديداً للشعر العربي المعاصر ، وخلاصاً له من أزمته الحادة ،

التي دفع اليها في نهاية النصف الأول من هذا القرن، والتي دفعه اليها التقيّد الجامد بأسلوب النظم القديم ، دون مراعاة لطبيعة العصر ، ودون التفات إلى المتغيرات الكثيرة التي طرأت عليه ، فهل لك أن تبين لي وجه الحقيقة في القضية ؟! وهل لك أن تحدثني عن الشعر العربي : طبيعته ونشأته ، وكيف تفاقمت أزمته ، وكيف تصدّى الشعراء لمعالجة هذه الأزمة؟!

قال الأب : إن الحديث عن هذا كله طويل ، وأرى الليل قد تقدّم شيئاً ، ولكني أحب أن ألفتك الى أنّ الشعر العربي قد نشأ نشأة غناء ، وظل طيلة عهوده القديمة غنائياً ؛ فقد أتاحت له نشأته الصحراوية موسيقى عذبة وافرة ، ورنيناً متوازياً دقيقاً ، قلما أتيح لشعر أمة من الأمم الأخرى ، وقد شغف القدماء بهذا الشعر ، فكان فنّهم الأكبر، وكان غناءَهم ومتعتهم الأدبية ، وكان له

فيهم أعظم تأثير ، مما لفت الحكام والوجهاء الى خطره ، ودعاهم الى استغلال الشعراء للدعاية ، فعبد الملك بن مروان لم يكن أحمق ، حين كان يجزل العطاء لجرير والأخطل والفرزدق ، والمهدي لم يكن مسرفاً حين كان يعطي مروان بن أبي حفصة مئة الف درهم جائزة قصيدة ، تدعم نظرية الخلافة العباسية ، وأمراء العالم الإسلامي لم يكونوا مغفلين ، حين كانوا يتنافسون في استزارة المتنبي ، محتملين منه اعتداده الثقيل، وتعريضه العنيف ، وهجاءه اللاذع ؛ ذلك أنّ هؤلاء الحكام قد أدركوا أن الشاعر يستطيع أن يؤدي لهم ولسلطانهم خدمات إعلامية ، لا تقل عمّا تقدمه اليوم للدول : الصحيفة والإذاعة والتّلفاز ، وسائر وسائل الإعلام الأخرى !

ولكنّ الشعر العربي قد تلقى الهزّة الأولى حين ظهر النثر العربي الفني ، وأخذ يرتقي على أيدي

عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ : ذلك أن هذا النثر قد بدأ ينافس الشعر لأول مرة ، وقد تجلّت هذه المنافسة أكثر ما تجلت في القرن الرابع وما بعده ، حين اقترب النثر من الشعر ، واعتمد أسلوب المحسنات البديعية ، وحين استطاع بديع الزمان خاصة أن يطوّر فناً أدبياً جديداً ، يقترب في أسلوبه الفني من أسلوب الشعر ، ويقترب في حجمه من حجم القصيدة ، وأقصد به فن المقامة، وقد شغف الناس بهذا الفن ، فلاقى البديع نجاحاً عظيماً ، والحق أن بعض مقاماته ، مثل المقامة المضيرية والموصلية تستطيع أن تثبت في أسلوبها الأدبي ، وفي فنها الخالص ، لأية قصيدة في الأدب العربي ، ومع أنّ النثر الفني استطاع من خلال المنافسة أن يضعف فنّ الشعر شيئاً ، فإنّ هذا الشعر قد بقي الفن الأدبي الأول ؛ وذلك لأنغامه الشجية ، ولأهميتة الإعلامية ، ولسيرورته

الشفوية ، الناجمة من عدم انتشار القراءة بين العامة حينذاك ، ومن عدم وجود المطبعة ، التي تيسّر كتب النثر للقراء على اختلاف طبقاتهم ، ثم لصلاحيته للغناء و ...

قال فَهْم مقاطعاً : لقد بيَّنت لي ظروف نشأته ومنافسة النثر له في القديم ، فهل لك أن تبين لي كيف بدأت أزمته ، وما الذي أضعف من مكانته في العصر الحديث ؟

قال الأب : حين سقطت كرة الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، تراجعت العلوم والفنون عامة ، وتراجع فنا الشعر والنثر خاصة ، بل خلدا إلى شيء يشبه النوم العميق : ثم أفاقا معاً في العصر الحديث ؛ ليجدا أنّ الظروف قد تغيّرت ، وأنّ الدنيا غير الدنيا ، أفاقا ليجدا المطبعة والمجلة والصحيفة، وليصادفا فنوناً أدبية جديدة مثل : القصة والمسرحية والسيناريو ، وليشهدا المذياع والسينما ،

ثم التلفاز والفيديو ، وإذا هذه الأشياء الجديدة
كلها توجّه طعنة نجلاء إلى مكانة الشعر خاصة !
وإذا هي كلها تنتزع منه أعباء الدعاية والإعلام ،
وتَفُوقه في توفير قدر أكبر من اللذة والمتعة للناس !
وإذا النثر يناسبها أكثر منه ، مما مكنّه من
هزيمة الشعر أخيراً ! ... وهكذا وجد الشعر
العربي نفسه لأول مرّة في أزمة شديدة ، ولكنها
أزمة لا يعاني منها وحده ، وإنّما يعاني منها
الشعر العالمي كله، الذي أصابه في ظل الظروف
التكنولوجية ما أصاب الشعر العربي، فالشعر
المعاصر عند سائر الأمم الآن قد ضعفت مكانته ،
وزهد القراء فيه ، وتفوّق عليه النثر ، وهو يعاني
من أزمة ، على تفاوت في درجتها بين أمة
واخرى! ولكن الشعر العربي له أيضاً أسبابه
الخاصة، التي أضعفت من مكانته القديمة، فكثير
من أغراضه السابقة لم يعد مُساغاً او مقبولاً من

الشاعر الحديث ، والشعر العربي قد نشأ نشأة غناء ، وظل كذلك طيلة عهوده -كما قلنا - ، ولكنه أفاق في هذا العصر ؛ ليجد العامية قد فشت في أقطار الوطن العربي ، وإذا هي قد غلبته على الغناء أيضاً !

قال فَهْم : ولكن هل وعى شعراؤنا المحدثون هذه الظروف الجديدة ، التي أحاطت بالشعر العربي ، حين تصدوا لمعالجة أزمته . ومحاولة تجديده ؟

قال الأب : مما زاد في أزمة الشعرالعربي أنّ شعراءَه المحدثين لم يعوا في الغالب هذه الظروف ، التي أحاطت به ، وانما راحوا يقولونه ، كما كان يقوله القدماء ؛ ولذا كان التحدي الأكبر الذي واجهوه حين ذاك : كيف يعيدون لهذا الشعر سحره القديم، وكيف يجدّدونه بما يتلاءَم وطبيعة الناس في هذا العصر ؟! وهكذا ظهر نفر من الشعراء الموهوبين المستنيرين ، الذين تصدّوا لهذه المهمة

العسيرة ! وقد نجحوا في البداية شيئا ما ؛ لأن تجديدهم كان يتأثر الشعر الأوروبي من جهة ، ويحتفظ بروح الشعر العربي من جهة أخرى ، وكان من أبرز هؤلاء : شوقي وخليل مطران وجبران ، والعقاد وايليا أبو ماضي وعلي محمود طه وابراهيم ناجي ، .. ولكن ما إنْ انتهى النصف الأوّل من هذا القرن أو كاد ، حتى كان هؤلاء المجدّدون الحقيقيون قد رحلوا ، وإذا الساحة قد أقفرت من الشعراء المؤهلين ، واذا الشعر قد أفلس ، ودفع الى أزمة خانقة حقاً !.. وفي هذا الوقت تقدّم نفر من الشعراء أو المتشاعرين ، من أصحاب الثقافة العربية أو الأوروبية الضحلة ، ليزعموا للقراء أنّ تجديد الشعر العربي لايتم حقاً إلاّ بتحطيم قواعده الفنية التليدة ، وبتأثر الشكل الشعري الأوروبي ، وبإهمال الروح الشعري العربي ، وبالاقتراب من أسلوب النثر المتفوق ،

وهكذا ولد هذا "الشُّرُّ" الغامض ، وما هي إلاّ أنْ ظهر عشرات المتشاعرين في كل قطر عربي، إذ سرهم أنْ قد تحطمت قواعد الشعر العربي لأول مرة ، فأضحى دون سياج فني ، يذود عنه الدخلاء والأدعياء ، وقد تكاثر هؤلاء في كل بلد عربي تكاثرا ، أزعج كل شاعر أصيل ظهر في هذه الحقبة عن قول الشعر ،ففضل أكثر الموهوبين الانسحاب من الساحة الأدبية ، وتركها لهؤلاء الصبية العاطلين ، يغدون عليها ويروحون ، ويلعبون فيها ويمرحون ، وكانت النتيجة – كما قلنا – أنْ زهد الناس في شعرهم المزعوم زهداً لا مثيل له ، على نحو ما نلمس الآن ، ... ولكن ، إذا كان هؤلاء قد تمكنوا من وأد الشعر الأصيل في هذه الفترة ، فإنهم لم يتمكنوا من قتله البتة ، وإنّما ظل حياً يعجب القراء في دواوينه القديمة ، التي ما فتئت تشدّ الناس اليها ، على نحو ما

رأيتك تفعل في بداية الحديث ، بل إن الذي ولد ميتاً هو (فَنّهم) الجديد ؛ فها هم أولاء أعلامه قد أخذوا يعترفون بموته اعترافاً ، كما فعلت رائدته نازك الملائكة قبل سنوات ، وكما اعترف لويس عوض وغالي شكري في العدد الأخير من مجلة العربي ، .. ثمّ ها هو ذا شاهد من أهله يشهد أخيراً بموته، وهو أحمد عبد المعطي حجازي ، كما نشرت الصحف قبل حين ، وأمّا شعراؤنا الموهوبون الذين آثروا الانسحاب من الساحة الأدبية ، فهم لا بد عائدون اليها من جديد ، ليستأنفوا مسيرة الإبداع الشعري الحق ، ومسيرة التطوير الطبيعي والتجديد، على نحو ما كان يفعل الشعراء النابهون في النصف الأول من هذا القرن . هذا هو مجمل الحديث عن أزمة الشعر العربي ، وأما في تعدادك لأسماء هذا (الفن) الجديد ، فقد نسيت أجمل أسمائه الحسنى! وهو الشعر "السائب" ؛ إذ لا موانع فنية له تذود عنه

الأدعياء من جهة ، ولأن رائده الأكبر هو بدر شاكر السياب من جهة أخرى !

قال َفْهم مندهشاً : لا شك أنّ حديثك يبدو لي قيماً نافعاً ، ولكن من الغريب قولك عن روّاد الشعر الجديد من أمثال : عبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة ، وصلاح عبد الصبور ، أنهم من أصحاب الثقافة العربية أو الأوروبية الضحلة ، فالمعروف أنّ هذه تهمة توجّه الى الذين يناصبون هذا الشعر العداء ، والأغرب هو تسميتك لهذا الشعر السائب ، وغمزك لرائده الأكبر السيّاب ، فهذا أمر لم يتجرأ عليه أحد قبلك ، فلو سمعك أنصاره ، وهم كُثُر ، لعدّوك أكبر رجعي في التاريخ الأدبي !

قال الأب ضاحكاً : مهلاً ، إذا كان من يسميه الشعر السائب يستحق لقب رجعي ؛ فلست أنا الذي يستحق هذا اللقب إذن ، وإنّما هو العقاد ، فهو

الذي سماه الشعر السائب ، وهو الذي ظل يهاجمه ، ويناصبه العداء ، حتى آخر لحظة في حياته ، ... وثمة اسم آخر لهذا الجديد ، لا يقلّ دلالة عن تسمية العقاد له ، وصاحبه لا يقل عن العقاد منزلة في دنيا الأدب والثقافة ، إنْ لم يزد عليه .

قال فَهْم متسائلاً : ما هو ، ومن هو صاحبه ؟!

قال الأب : نعم : إنّ له اسماً آخر هو الكلام (الفارغ) وأما صاحبه فهو عميد الأدب العربي طه حسين ، فهل كان العقاد ضحل الثقافة العربية أو الأوروبية؟! ... أم هل كان رجعياً يعارض التجديد وهو رأس مدرسة الديوان ، التي دعت الى تجديد الشعر العربي ، منذ أول هذا القرن ، وشنّت حرباً لا هوادة فيها على الشعراء المحافظين الجامدين؟! ... وهل كان طه حسين ضحل الثقافة العربية أو الأجنبية ؟! ... أم هل كان رجعياً ،

يعادي التجديد الشعري ؛ وهو أكبر ناقد في القديم والحديث ، جعل همّه كشف التجديد في الشعر العربي ، منذ العصر الجاهلي الى نهاية النصف الأول من هذا القرن ؟! ..صدّقني : إنّه لا قيمة لألقاب هؤلاء المتشاعرين ، ولا قيمة لاستخفافهم بالناس الذين يزورّون عنهم ، ويزدرونهم ؛ فهم إنمّا يتهمونهم وينبزونهم بالألقاب لأنهم يأبون أن يجاروهم ، وأن يشربوا من نهر جنونهم ! .. ولكن أجبني ، .. قل لي : أين هو الرائد من هؤلاء المتشاعرين ، الذي توازنت لديه الثقافة العربية والثقافة الأوروبية على نحو عميق ، وتفاعلتا في شخصيته على نحو أصيل ، كما نجد عند طه حسين أو العقاد مثلاً؟!

قال فَهم في شيء من التذكر والتفكير : مهلاً ، ثمة رائد من رواد هذا الشعر ، لم نأت على ذكره بعد، والحق أنه زعيم كبيرمن زعمائه ، يضع له

النظريات ، ويرسي له القواعد والأصول ، وأقصد به "أدونيس" والمعروف أنه درس الشعر العربي القديم واختار منه ، والمعروف أنه مطلّع على الآداب الأوروبية، وأنّ شعره مترجم اليها ، وآية هذا أنه حين فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، جهر أدونيس للصحف بأنه هو الذي كان مرشحاً لجائزة نوبل ؛ ... فما رأيك الآن ؟!

قال الأب بعد أنْ قهقهه ؛ حتى بدت نواجذه : أدونيس يفوز بجائزة نوبل ؛ وهو الذي لا يعرف عنه شيئاً أكثر لمثقفين ، ولا يسمع به البتة عامة القراء !! أمَا لو فاز بها لكان هذا الفوز "نكتة" العصر حقاً، بل لكان اثباتاً قاطعاً بأن الصهيونية تقوم على أمرهذه الجائزة العالمية ، وأنها منحته إيّاها مكافأة له على نجاحه في تخريب الشعر العربي ! .. أذكر أنني قبل مدة بعيدة ، قرأت كتابه " مقدمة للشعر العربي " فلاحظت أنه فيه يهذي هذياناً ،

على أنني قلت لنفسي يومذاك : لابأس عليه فقد يأتي الشعر بعد الهذيان ، كما حدث لعمر بن أبي ربيعة ؛ إذ قال عنه جرير : " ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر " ، ولكن ها قد مضى أكثر من عشرين عاماً ، وما زال أدونيس يهذي ، دون أن يقول الشعر ، مما جعلني أقطع الآن بأن مثله لا يفلح في مضمار الشعر ؛ وذلك لسبب يسير جداً ، هو أنّ الله لم يخلقه ليكون شاعراً !!

قال فَهْم في إشفاق شديد : حذار ثم حذار من أن تذيع هذه الآراء بين الناس ، فلو سمعك أتباع هؤلاء الروّاد من الشعراء الجدد والأدباء ، الذين تمتلىء بهم أندية القوم ، وتزخر بهم المحافل الأدبية ، للقيت منهم شراً ، ولوصموك برجعية أدبية ما بعدها رجعية .... وكأني بك لم تشهد مجالسهم، ولا تعرف أساليبهم في التقريظ

والتعريض ؛ فهم لا يتورّعون عن سلق من ينقدهم بألسنة ماضية حداد !

قال الأب في استخفاف : رجعي أو قديم ! اعلمْ أنّ هذه الكلمة أو التهمة ، التي يشهرونها في وجه كل من يخالفهم ، لا تخيفني ، وإنّما جوابي عنها هو جواب الدكتور محمد حسين هيكل ، قبل أكثر من نصف قرن ، وذلك إذْ زار مكة حاجاً أو معتمراً ، ووضع كتابه " في منزل الوحي" فقد قال فيه ، إذ وصموه بالرجعية ما معناه : إذا كان السمو الروحي أو إقرار الحق هو رجعية ، فأحببْ إليّ بالكلمة ، ثم أحبب ! .. أمّا مجالسهم فقد غشيتها، وانا أعرف ما يدور فيها جيداً ، وأكثر ما يعجبني منها أن أحدهم قد يقبل عليك ، يريد أن يعرفك ، فيسألك عن شاعرك المفضل ، فإذا قلت له : إنه الأخطل مثلاً ، لوى شدقه عنك مزدرياً ! . وإذا قلت له : إنه المتنبي مطّ شفتيه في وجهك

مستهزئاً! وإذا قلت له :إنه شوقي غمزك بعينه لزملائه مستخفاً ! وحين تلحظ منه هذا كله ، وتسأله عن شاعره المفضل ، يجيبك مُشْمَخراً : إنه ت.س .اليوت أو ازرا باوند ، أو بابلونيرودا أو لوركا ، أو فرست !! وعند ذاك تظن أنه أحاط بالأدب العالمي الحديث إحاطة السوار بالمعصم ، فتقبل عليه تريد أن تفيد من علمه وفهمه ، ولكن ما إن تجاذبه أطراف الحديث في شؤون الثقافة ، حتى يتبيّن لك أنّه لا يحسن صوغ جملة بالإنجليزية أو غيرها ، وإذا أنت تكتشف أنه لا يعرف الهَر من البَر في الآداب الأجنبية ، وإذا هو مثل أحمد بن عبد الوهاب في "رسالة التربيع والتدوير" ، يعدّد أسماء الشعراء ، دون أن يتعلق منهم بسبب ! ،.. نعم تراهم يسخرون منك ، إذا ذكرت إعجابك بالشعراء العرب القدامى ، وتجدهم يقررون أنك رجعي ، مهترىء الفكر والثقافة ، وما

دروا ـ سامحهم الله ـ أنّ الأخطل والمتنبي وشوقي قد وصفوا أمثالهم في شعرهم فأحسنوا الوصف، فلو بُعثوا الآن أحياء ورأوهم في مجالسهم يُقَحْقِحون قَحْقَحة الدجاج ، و يبيضون كل دقيقة قصيدة جديدة ، لما زادوا على ترديد أبيات كانوا قد قالوها من قبل !

قال فَهْم متسائلاً في ابتسام : تُرى ماذا كانوا سيردّدون فيهم ؟!

قال الأب : . أمّا الأخطل فأحسبه سيصف شيوخ هذا (الشُّعْر) وأتباعهم بترديد قوله :

(تنق) بلا شيء (شيوخ محارب)

وما خلتها كانت تريش ولا تبري

(ضفادعُ) في ظلماء ليل تجاوبتْ

فدلّ عليها صوتها حية البحرِ

وأما شوقي فأظنه سيؤكد تصوير الأخطل بترديد قوله في وصف هذه الضفادع :

" تنقنق الدهر بلا علةٍ وتدعي في الماء ما تدّعي"
وأما المتنبي فإخاله سينتفض من ترابه ثائراً ،
ساخطاً على ما آل اليه الشعر العربي في هذا
الزمن ؛ ليصيح متسائلاً في هياج واحتجاج :
" بأيِّ لفظ تقول الشعر (زِعْنِفَةٌ)
تجوز عندك لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ "
قال فَهْم وقد لاحظ أنّ أباه يتحرك لينهض : مهلاً ،
انتظر قليلاً ؛ فقد تبقى أمر هام !
قال الأب منكراً : ماذا تبقى ؟! قل ؛ فقد طال هذا
الحوار خاصة ، حتى انقضى الهزيع الأول من
الليل !
قال فَهم : إنْ سلّمت لك جدلاً بأن الشعر العربي
الأصيل قد وئد في هذه الفترة ، فكيف السبيل
إذن إلى بعث الحياة فيه من جديد ؟!
قال الأب : الخطوة الأولى أن يكف هؤلاء عن نشر
(الهذر) على أنه شعر ، وأن يطووا ما كانوا قد

نشروا من دواوينهم (الفارغة) ! والخطوة الثانية أن يبدأ الموهوبون حقاً التجديد ، من حيث انتهى علي محمود طه وابراهيم ناجي وأمثالهما ، فلا بأس من تنويع القوافي والأوزان ، ولا بأس من التفاعل والشعر العالمي الحديث ، على أن يحتفظ الشعر العربي بهويته وروحه ، وأن يُراعى في النظم ما استجدّ من ظروفه ، وأن نلحظ خاصة أنه عاد عَوْداً على بدء ، فخلص ثانية للفن والغناء ، كما كان إذ قال فيه الشاعر القديم :

" تغنّ بالشعر إمّا كنتَ قائلهُ

إنّ الغناء لهذا الفن مضمارُ "

قال فَهْم ضاحكا فجأة : حسن ! ولكن الشيء الوحيد الذي لم اقتنع به بعد من كلامك هو قولك عن هذا الشعر الجديد : إنه غامض الى درجة أن أصحابه لا يفهمونه ، فهل يعقل أن يتكلم الانسان ما يُبهم عليه ، وهل يُعقل أن يقول الشاعر المقطوعات

والقصائد دون أن يفهم عنها شيئاً ؟!

قال الأب بصوت جاد : – نعم ، يُعقل هذا ؛ فهذه موهبة أو نعمة خاصة ، اختص الله بها بعض عباده، منهم من ينكرها ، ومنهم من يشكرها ، وكأني بك لم تقرأ ما كتبه طه حسين في كتاب "الأيام" عن أحد شيوخه في الأزهر ، إذ كان لا يفتأ يقول:

" ...ممّا منّ الله عليّ به أني أستطيع أن أتكلم ساعتين ، فلا يفهم أحد عني شيئاً ، ولا أفهم أنا عن نفسي شيئاً ! " .

* * *



# ١٣- هَيْمَنَة !

قال فَهْم إذ قرأ في الصحيفة نتائج انتخاب ؛ أجرته مجموعة من الأدباء والكتّاب : ألا تعلم أنني كلما تأملت موقفك من روابط الكتّاب العرب واتحاداتهم، أخذني العجب من جميع اقطاره ، واستولى عليّ الدّهش من مختلف أنحائه ؛ ذلك أنه موقف غريب حقاً ، فيه قدر من الغموض ، بل فيه شيء من التناقض ! فأنا أسمعك أحياناً تثني على هذه الرابطة أو ذلك الاتحاد كل الثناء ، ثم تعود بعد مدة ، لتزري عليه أو عليها كل الإزراء ، دون أن أفهم عنك السبب الذي يسوّغ التقريظ أو التعريض ؛ فهل لك أن تبين لي ماذا يعجبك من هذه الروابط والاتحادات ، وماذا لا يعجبك منها ؟!

قال الأب منكراً : ليس موقفي من اتحادات الكتّاب العرب أو روابطهم بالغامض ، ولا هو بالمتناقض ،

وإنما هو موقف واضح كل الوضوح ، متّسق كل الاتساق ، فانتقادي إياها لا يعني أنني لا أقدرها حق قدرها ؛ ذلك أنني أعجب أحيانا بوجهها الفكري النقي ، وبدفاعها الدائب عن حرية الكاتب، وحقه الصريح في التعبير عن أفكاره ، وقد يعجبني منها دورها الفعّال في تشجيع المواهب ، وفي تنشيط الحياة الثقافية عامة ، والحق أنه لو لم يكن لها من فضل على الأدباء إلا إتاحة الفرصة لهم للتعارف والالتقاء ، وتبادل الآراء ، وذلك في أثناء الندوات والمهرجانات ، لكان لها فضل أيّ فضل ! ولكان وجودها خيراً ألف مرة من عدمه، وأمّا مآخذي عليها فهي يسيرة بالقياس الى ما قلت ؛ ذلك أنّ الأمور هي في الغالب ، كما يقول الشاعر:

" ولكل شيء آفة من جنسهِ

حتى الحديد سطا عليه المبردُ "

قال فَهْم : ولكن ما الذي لا يعجبك منها ؟
قال الأب جاداً : لا يعجبني من أكثرها أسلوب الهيمنة العقيم ، الذي يتّبعه فيها أفراد معينون ، مع أنهم لا يتميزون من سائر زملائهم بشيء ، وإنما يتميّز بعض زملائهم منهم بأشياء ! وهذه الهيمنة تبدو فيها جلية يوم الانتخابات خاصة ؛ ذلك أنه يوم مشهود حقاً : إذ يأتي فيه الأدباء والكتاب العرب الى هذا الاتحاد أو تلك الرابطة من كل فج عميق ، وفي قلوبهم شوق الى اللقاء ، وفي نفوس بعضهم رغبة قوية واحدة ، وهي أن تسفر الانتخابات هذه المرة عما ينبغي أن تسفر عنه في أية رابطة أو اتحاد كُتّاب : أن تسفر عن فوز الأكثر أصالة من ناحية ثقافية ، والأنجح تجربة من ناحية إبداعية ، وقد يشجع هؤلاء الراغبون بعض المتميّزين من الأعضاء ، فيتشجع هؤلاء على خوض غمار الانتخابات ، ولكن ما إنْ تمرّ

دقائق على (الفرز) العلني للأصوات ، حتى يصاب هؤلاء المرشحون المغامرون وأنصارهم بخيبة أمل كبرى ! إذ يتحققون من أنهم مُنوا كالعادة بإخفاق ذريع ؛ ذلك أن (الفرز) الأولي يشير دائماً إلى أن (سَدَنَة) هذه الروابط والاتحادات منذ كانت ، ما زالوا سَدَنَتها وسادتها! .. أبداً كأن هؤلاء (السدنة) ما خلقوا إلا ليقودوا روابط الكُتَّاب ، واتحاداتهم ، وكأنّ هذه الروابط والاتحادات لم توجد الاّ ليقودوها ، وكأن سائر الأعضاء ما تكبدوا مشقة الحضور إلاّ ليجتلوا طلعاتهم البهية ، ولينتخبوهم لاهجين بحمدهم ، وليفتنّوا بتخطيط أسمائهم الرشيقة على أوراق الانتخاب !! .. حتى لجنة العضوية ، التي ينبغي ألاّ يترشح لها إلاّ كل من له باع طويلة في ميدان النقد والدرسات - حتى هذه اللجنة المهمة ما فتىء (السَدَنَة) أو (حوارييّهم) الأفذاذ ،

يبسطون أيديهم عليها !

قال فَهْم مقاطعاً : وماذا كانت نتيجة هذه الهيمنة العجيبة : أكانت خيراً لها ، أم كانت وَبالاً عليها؟

قال الأب : بل كانت وَبَالاً عليها وعلى سدنتها ، الذين أحرقوا أنفسهم بإصرارهم الدائم على الترشيح والفوز ، أما هي فقد اهتزت مكانتها في أعين الأدباء والمفكرين ، وأما سدنتها فقد فقدت أسماؤهم بريقها على الزمن ؛ إذ فترت حماسة المثقفين لهم، وضعف إعجابهم بهم ، وأما الهيمنة فما زالت هي المأخذ الخطير ، الذي يهاجمها من خلاله الأعداء والأصدقاء ، على حد سواء ، وليت هؤلاء السدنة يصدّقون من يقول لهم ناصحاً : إنّ من الخير لهم ولها أن يتخلوا عن أسلوب السيطرة المطلقة ؛ ولقد اثبتوا للجميع أَثَرتهم وتسلطهم في كل مرة ، فماذا عليهم لو أثبتوا إيثارهم وحرصهم على خيرها مرة واحدة ؟! .. وقد كانت النتيجة

أيضاً أن كثيراً من الأدباء الأنقياء قد هجروا هذه الروابط والاتحادات ، وتركوها لهؤلاء المتسلطين المتسلقين، ولحوارييهم من الصبية "المتأدبين" ، فقد رأوا دخولها مضيعة للوقت ، أما المعتدلون منهم فقد كنت تجدهم يكتفون في التعليق على نتائج الانتخاب لهذا الاتحاد أو ذاك ، بهزّ رؤوسهم، وهم يرددون قول بشار :

"أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمُ
قد ضلّ من كانت العميان تهديه "

وأما الغالون منهم ، فقد كنت تجدهم يظهرون حدتهم وسخطهم على هذه الرابطة أو تلك ، وهم يحلفون أغلظ الأيمان ، أنْ لن يدخلوها ما داموا فيها، و لسان حالهم يقول :

" تعساً لها من رابطة

إنا نراها فارطة "[١]

في مستواها هابطة

قال َفْهم باسماً : وما الذي لا يعجبك منها ايضاً؟

قال الأب متضاحكاً فجأة : لا يعجبني البتة ، أو يعجبني جداً ، هؤلاء الشباب من الشعراء والكتاب ، وجلّهم من حواريي السدنة ؛ فحين تذهب الى مقرّ الرابطة أو الاتحاد ، تجدهم يرابطون فيه ، آناء الليل وأطراف النهار ، وكأنْ لا شغل لهم سوى المجيء اليه ؛ كي يثقف بعضهم بعضاً ؛ ولا حديث لهم في هذا سوى ذكر (إبداعهم)؛ حتى يشعروك بأنهم لم يخلقوا إلاّ للإبداع ، وبأن الإبداع لم يخلق إلاّ لهم ، ومن آيات ذلك عندهم أنك قد ترى أحدهم يقبل على

---

(١) فارطة : مقصّره أو ضالّة .

الآخر يحيّيه ، فلا يقول له : كيف حالك ؟ وإنما يقول : كيف حال إبداعك ؟ وإنْ سمعه يعطس فلا يشمّته بقوله : يرحمك الله ، وإنّما بقوله : يرحم الله إبداعك ! وإن سعل قال له : صحة لإبداعك ! وإنْ قص شعر رأسه أو حلق ذقنه قال له : نعيماً لإبداعك ! وإنْ رآه يعثر ، أو يسقط على الأرض ، هرع إليه راكضاً وهو يقول : الله يحمي إبداعك من الكسر ! وقد تسمع المسؤول يجيب زملاءَه قائلا : صدِّقوا أنني استيقظت البارحة في الهزيع الأخير من الليل على صوت ، يسدد إليّ صاحبه مسدساً ، وهو يقول : " انهضْ انهضْ أيها الشاعر ، أنا شيطانك الشعري ، جئت أحمل اليك الإبداع ، انهض .. انهَضْ " ثمّ أخذ يوحي إليّ بالبيت إثر البيت، فما كاد الصبح يسفر ، حتى كان قد أملى عليّ قصيدة رائعة ، ... ثم يأخذ ينشد لزملائه قصيدته العصماء ، التي تلقاها من

وحيه المسلّح ، وما هي إلاّ أنْ تتعالى هتافات الثناء من الزملاء ، ما بين واحد يقول له مُقَرِّضا : " أنت ابن حرام في الإبداع ! " ، وبين ثانٍ يصيح مهنِّئاً: "ثكلتك أمّك من مبدع كبير! "

وبين ثالث يهتف : " لا فُضَّ فوك أيها المبدع الخطير ! " .

.وهكذا تجدهم قد ابتذلوا كلمة "الإبداع" ، هذه الكلمة اللطيفة الطريفة ، حتى مجّها الذوق ، وملّتها الأسماع ، وفقدت إيحاءَها الساحر الجميل !

قال فَهْم مندهشاً : ولكن ما رأيك فيهم : هل هم مبدعون حقا كما يقولون ؟!

قال الأب : يشهد الله أنّ الإبداع يتباعد عنهم تباعد السفينة "فويجر" عن الأرض ، وأنه يبرأ منهم براءة الذئب "همِلاج" من دم يوسف .

* * *

## ١٥- بَيْض الكُتُب !

قال فَهْم إذ قرأ خبراً حول طائفة من الكتب الجديدة، التي صدرت حديثاً : ألا تلحظ أنّ كتّابنا وشعراءَنا في إنتاجهم قسمان : أما قسم فهو يعيد النظر ويتأنّى ، فلا يخرج للناس الكِتاب إلاّ بعد مدّة ، أو بعد سنوات عدّة ! ... وأما القسم الآخر فإنه يندفع ويتعجّل ؛ فهو لا يصدر لهم الكتاب إلاّ (ليُطْرِ فَهم) بصدور كتاب آخر أو أكثر بعد قليل ! حتى رووا في بعضهم النوادر ، فقد قيل : إنّ صاحباً لو احد من هؤلاء الكتّاب المتعجلين قد قال له مداعباً ذات يوم ، وقد انفرد به : " .. لقد صحّ عندي الآن أنّ نبوغك الأدبي يقارب طه حسين ، أو يزيد عليه قليلاً ؛ فأنت إذن أحق الكتاب جميعاً بخلافته على عمادة الأدب العربي المعاصر ."

قال الكاتب وهو يضحك سروراً : ويحك ! لماذا ؟!
وما الذي يدعوك الى قول هذا ؟! ، قال الصديق :
لأنّ طه حسين وهو في أوج عطائه ، كان يصدر
كتبه للناس كِتاباً كِتاباً ، وأما أنت – حماك الله –
فإنك تصدرها لهم كتابين كتابين ، أو ثلاثة ثلاثة .
.... فما رأيك في هذا ؟ وهل للتسرّع والتأني في
الكتابة علاقة بالضحالة والأصالة ؟ وهل في
السرعة خاصة دليل على قوة الذهن ، ووفرة
النبوغ ؟!

قال الأب : أحب لك أن تلحظ أنّ الكتّاب من جهة
أخرى ثلاثة أقسام : قسم موهوب جداً أو نابغ ،
وقد يتفّق للكاتب منه أن يضع كتاباً ناجحاً أو
رائعاً في وقت قصير ، وذلك لأن موهبته ونبوغه
يسعفانه فيه ، ولكنّ هذا لا يتفّق له دائماً ، أو على
نحو مطّرد ، وإنك تجده يعترف أنه لو تأنىّ في
وضع هذا الكتاب الناجح ، أو لو أتيح له أن

يصوغه من جديد ، لخرج أكثر نُجْحَاً ، وأرفع مستوى من ناحية فنية ! .. وأمّا القسم الثاني فتجد كُتَّابه متوسطي الموهبة ، ويستطيع الواحد منهم أن يضع كتاباً ناجحاً شيئاً ما ، إذا أعمل الذهن ، وبذل الجهد ، وعمد الى التأني ، ولكنه يخفق إخفاقاً ذريعاً ، إنْ هو تعجّل أو تسرّع ! ... وأما القسم الثالث من الكتّاب ففيه نجد العاطلين من الموهبة ، أو الأدعياء الجهلاء ، وهم كُثُر في عالم الأدب والعلم ، وهؤلاء سواء عليهم التسرع والتأني في الكتابة ، لأنهم غير قادرين على أن يضعوا كتباً ناجحة ، معتمدين على جهدهم الخاص ! .. وهكذا يمكن ملاحظة أنّ كل أمّة عريقة فيها نوعان من الكتّاب والشعراء : نوع يميل الى السرعة في الإنتاج ، مطمئناً الى جودة طبعه ، واثقاً بسرعة بديهته ! ونوع يميل الى التنقيح والتجويد ، والى إعادة النظر والتأني .

ومثاله في أدبنا العربي مدرسة زهير بن أبي سلمى الشعرية ، فقد كان زهير وتلاميذه من أمثال ابنه كعب والحطيئة يميلون إلى تجويد أشعارهم وتنقيحها ؛ فلا يخرجون القصيدة إلاّ بعد حول كامل ، وكان الراوية الأصمعي يميل الى شعراء الطبع ، وينفر من أصحاب الشعر الحولي، ويلقبهم عبيد الشعر! ولكن الزمن أثبت أن هؤلاء العبيد هم سادة الشعر العربي حقاً ، وأن قصائدهم خالدة رائعة ! ... ولا يقتصر أمر هذا في أدبنا على الشعر ، وإنما يتعدّاه إلى النثر ؛ فقد كان الجاحظ إمامُ النثر الفني من أنصار التجويد والتأني ، وأحب أنْ تذكر هنا وصيته المشهورة للأدباء الناشئين ، في كتابه " البيان والتبيين" ؛ فقد دعاهم الى التمّهل وإعادة النظر ، والى عرض إنتاجهم النثري والشعري على النقاد، وأصحاب الاختصاص ، والى أن يقرأوه أوّلاً على

أصحابهم وغيرهم ؛ وذلك كي لا ينشروه إلاّ بعد أن يطمئنوا الى استحسان هؤلاء ، وحرصهم خلال القراءة على الإصغاء . وقد كان هذا الأديب الرائد يدعو الى عدم الوثوق بما يأتي به الطبع أول مرّة ، فنحن نجده في رسالة " التربيع والتدوير " يسخر من خصمه أحمد بن عبد الوهاب ؛ لأنه كان " يثق بأول خاطر" ! ... وأما في العصر الحديث فنرى طه حسين في " حديث الأربعاء " يجهر بأنه من أنصار منهج التأني والتجويد ، ويعترف بأنه هو نفسه يلجأ الى هذا النهج في كتابته أحياناً ؛ فلا عجب إذن أن يفوقه في الإنتاج هذا الكاتب الفذ ، الذي أشرت اليه في البداية ! ... وأما في مضمار القصة الحديثة فيبدو أثر التمهّل والتسرّع واضحاً في مستوى الإنتاج الفني ، فأنت تجد قاصاً موهوباً مثل نجيب محفوظ ، قد يضع القصة الناجحه في

سرعة ، ولكننا نرى الرائع المتميّز من قصصه هو الذي تريث في أخراجه ؛ فهو قد أنفق بضع سنين في كتابته " للثلاثية مثلاً ، قبل أن يخرجها للناس ، بل هو يعترف أنه خطط تخطيطاً علمياً في كتابتها ، حتى إنه جعل لكل شخصيّة كبيرة منها ملفاً خاصاً ! وقد كانت النتيجة أن خرجت الثلاثية متميزة رائعة ؛ فقد نالت جائزة الدولة ، إثر نشرها ، وظلت تلاقي النجاح منذ أكثر من ربع قرن ، حتى إنها كانت في طليعة أعماله ، التي جعلته يستحق أخيرا جائزة نوبل العالمية ، ومثل هذا يمكن أن نقول عن قصته "الحرافيش".... على حين نجد قاصا آخر من زملائه ، هو يوسف السباعي ، قد كان متوسط الموهبة ، ويستطيع أنْ يقَدّم قصصاً ناجحة لو أنه كان يتأنى ، ويحاول امتلاك الأدوات الضرورية لكتابتها ، ولكنه كان يؤثر السرعة أو التسرع في

الإنتاج ، ولا يُلقى بالاً الى العناية بلغته ، فقد كتب قصصه الطويلة جداً ، مثل : " رد قلبي " و " إني راحلة " خلال أشهر قليلة ، فكانت النتيجة الآن أن هذه القصص هابطة المستوى ، أو مخفقة من الناحية الفنية ، وإنّ الموازنة النقدية الجادة بينها وبين ثلاثية نجيب محفوظ مثلاً لتظهر دقة ما نقول!

قال فَهْم مستحسناً : هل لك أن تزيد وأنْ توضح لي الأمر أكثر بأمثلة من الأدب الأوروبي العالمي ؟

قال الأب : لقد اشتهر كبار الكتاب هناك بالتأني في إخراج أعمالهم الناجحة ، فقد قيل : إن الكاتب الروسي تولستوي كان لا يفتأ يعيد النظر ، ويعدّل قصته " الحرب والسلام " ، حتى اضطر زوجه الى أن تعيد كتابة هذه القصة العملاقة حجماً نحو سبع مرات ، وها هي ذي القصة الآن تُعد درّة أعماله ، ومن روائع القصص العالمي الحديث !...

وقد قيل : إنّ القاصة " مرغريت ميتشل " قد أعادت الفصل الأخير من قصتها " ذهب مع الريح" مرات كثيرة ، حتى رضيت عنه، ولما نشرتها لاقت رواجاً هائلاً بين القراء ، وأخرجتها هوليوود فلماً ، فكان واحداً من الأفلام الرائعة ، التي تعتز بها في تاريخها كله ، .. وثمة مثالان طريفان على التسرّع والتأني في الإنتاج من الأدب الإنجليزي المعاصر : أما الأول فهو القاص " أوسكار وايلد " وكان من أنصار التأني والتجويد؛ فقد روي أنه وهو يكتب إحدى قصصه قد دخل غرفة الكتابة ذات صباح ، وأغلق الباب دونه ، ولم يخرج إلاّ عند موعد الغداء ، فلما سئل عمّا أنجز خلال هذه الساعات في قصته ، أجاب : لقد وضعت نقطة في نهاية سطر : ثم إنه عاد بعد الغداء الى الغرفة ، وأمضى فيها عدة ساعات ، ولم يخرج منها إلاّ عند موعد العشاء ، فلما سئل

عما أنجز خلال ذلك ، قال : لقد محوت النقطة من آخر السطر !

وأما المثال الثاني فهو القاص " إدجار والاس " ، وكان مشهوراً بسرعته في كتابة قصصه البوليسية ، حتى إنه كان ينجز الواحدة منها خلال أيام معدودة ؛ فقد رووا أنه دخل غرفته ذات يوم ليبدأ كتابة قصة طويلة جديدة ، ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى جاء أحد أصدقائه يزوره ، ولما عرف أنه دخل غرفة الكتابة قبل لحظات همَّ بالمغادرة ؛ إذ ظنَّ أنه قد جاءه في وقت غير مناسب ، فلا ينبغي إزعاجه ، ولكنه ما كاد يهمّ بذلك حتى اعترضه من في البيت قائلاً له : ولماذا تغادر على هذا النحو من السرعة ، ألا تنتظر (برهة ) ريثما ينهي القصة !

ولكن الموازنة النقدية الجادة بين اوسكار وايلد و إدجار والاس تظهر أن الفرق بينهما من الناحية

الفنية ، لا يقل عن الفرق بين نجيب محفوظ ويوسف السباعي !

.. نعم : إن التأني في الكتابة خاصة ، وفي الفن عامة هو سبيل التفوق والنجاح ، وإنّ التعجّل فيهما هو سبيل الفشل والإخفاق .

قال فَهْم : ألاحظ أن أكثر كلامك قد دار حول الأعمال الإبداعية ، ولكن ما رأيك في من يتصدّى لكتابة البحوث والدراسات في العلوم الإنسانية أو غيرها ، وإذا هو لا يفتأ يصدر الكتاب إثر الكتاب ، في سرعة سريعة جداً ، وإذا هو يتباهى بفيض إنتاجه ، وغزارة عطائه ؛ حتى إنه إذا جلس في مجلس عام ، واتفق أنْ أثنى من في المجلس على واحد من زملائه الكتاب ، نراه يتململ متضايقاً في جلسته ، ثم يتنحنح ، ولا يتورع عن القول : لقد صدر لي حتى الآن أكثر من ثلاثين كتاباً ، وأما هذا الزميل الذي تمدحونه فلم يُصدر الى

الآن سـوى ثـلاثـة كـتـب أو أربـعـة ، فـقـولـوا – استحلفكم بالله – من هو أشهر وأقدر ؟! .. وحتى إنه اذا وضع خبراً في الصحيفة يبشّر فيه القراء بصدور كتاب جديد له ، نجده يحرص على أن يذكرهم بالعدد الكثير ، الذي بَلَغَته كتبه ، قائلاً : "عن دار أبي سفيان للنشر والتوزيع صدر الكتاب التاسع والثلاثون للكاتب الألمعي... ؟! " والغريب أنك تجد هـذا وأمـثـالـه يـكـتـبـون فـي مـخـتـلـف الموضوعات ، وكأنهم موسوعيّو الثقافة ، أو كأنهم لا يؤمنون بالتخصّص في هذا القرن ، والأغرب أنك حين تباحث الواحد منهم في موضوع هذا الكتاب الذي ألفه أو ذاك ، قد تكتشف أنه لا يكاد يفقه من مضمونه شيئا ، وإذا هو فيه – رعاه الله – أغبى من " هبنقة " أو أجهل من " شَرَنْبَث " ، فهل لك أن تبين لي : كيف يتسنى لهذا وأمثاله أن ( يبيض ) كل يوم كتاباً ، على الرغم من جهله ،

وضعف عقله ؟!

قال الأب وقد ابتسم فجأة ، ثم راح ينشد ، وهو يهزّ رأسه :

" ( وبيضة ) خِدْرٍ لا يُرام خِباؤها

تمتعت من لهوٍ بها غير مُعجَلِ "

ألا تعلم أن تعبيرك الأخير يذكّرني بكلمة طريفة ، كان قد كتبها أحد الكتاب المعروفين اليوم ؛ فقد كان هذا الكاتب يشرف على الصفحات الأدبية قبل سنوات في إحدى الصحف اليومية ، وقد لاحظ أن أحد الكتاب ما يكاد يرسل اليه مقالة لينشرها ، حتى يرسل اليه أخرى ؛ ممّا أغاظه ، ودفعه الى كتابة كلمة ، جعل عنوانها : " مواطن يبيض مقالات " فما عسى هذا الكاتب يقول ، لو سمع منك الآن أن ( البَيْض ) في الكتابة قد تطوّر كثيراً ، ولم يعد يقتصر على المقالات الموجزة ، وانما تعداه الى الكتب الكبيرة ؟! ... أما سؤالك

لي كيف يتسنى للواحد من هؤلاء أن يضع كل يوم كتابا ، فجوابه أن الأمر عليهم أيسر مما تظن ، فهم إمّا أن يسلقوا مباحثهم سلقا غير سائغ ، وإما أن يسطوا على ( بيض ) غيرهم ، ويضعوه ، في سلالهم ... ولكن ليت هؤلاء يدركون أنّ ألفاً من ( بيضهم ) هذا المسروق أو المسلوق ، لا يعدل في الحقيقة ( بيضة ) واحدة ، ناضجة متميزه ، يبيضها ديك !

قال فَهْم متعجباً : وماذا تقصد هنا ببيضة الديك ؟ وهل الديك يبيض ؟!

قال الأب : اعلم أنّ ثمة كتّاباً وشعراء قد استطاعوا أن يخلّدوا أنفسهم من خلال اقتصارهم على وضع عمل أدبي أو علمي واحد ، خلال عمرهم كله ، فشهرة ابن زريق البغدادي مثلاً تقوم على قصيدة واحده ، وجدت تحت وسادته بعد موته ، بل إنّ ثمة أدباء عالميين لم يفكروا أن يكونوا كتّاباً ، وهم

في أوج صحتهم وقوتهم ، حتى إذا داهمهم المرض المميت ، فإذا هم يشعرون بأن لديهم شيئا ما يودّون قوله ، وينبغي لهم أن يتخفّفوا منه قبل أن يرحلوا ، ومثال ذلك الكاتب الإيطالي (جوزيبي) أمير لمبدوزا ، فهو لم يكن يفكّر بأن يكون كاتباً في يوم من الأ يام ، ولكنه حين مرض بالسرطان ، وأخبره الأطباء بأنه ميّت بعد سنة لا محالة ، هناك شعر أن لديه شيئا يلح عليه بأن يضعه قبل رحيله، فعمد الى القلم والورق ، وهو في عجلة من أمره، يريد أن يلبي نداء هذا الإلحاح الغريب ، فكان أن وضع قصته " الفهد " التي تعد الآن من روائع القصص الإيطالي الحديث ، .. وإذن فقد قصدت ببيضة الديك العمل الوحيد الخالد ، الذي قد يضعه كاتب صادق ، أو أديب موهوب .

قال فَهْم وهو يبتسم : ولكنك لم تجبني : هل يبيض الديك حقا ، كما يشاع ؟!

قال الأب ضاحكا : الحق أنني لست متيقّناً من أن الديك يبيض ؛ فعلم هذا عند علماء الطيور ، أو عند مربّي الدواجن ! ... ولكن الذي أعرفه أن العرب تزعم بأن كل ديك يبيض خلال عمره بيضة واحدة ، ولا يبيض سواها ، والى هذا أشار الشاعر القديم ، حين خاطب صاحبته ، إذ زارته مرة واحدة ، ولم تزره أخرى ، فقال :

قد زُرتِنَا مرةً في العمر واحدةً

ثنِّي .. لا تجعليها بيضة الديكِ

***

## ١٥- وسادة !

قال الأب لابنه باسماً : ماذا ؟! إني لأرى بين يديك كتاباً ، تقلب النظر فيه ، وكأنك لا تنشط للحوار هذا المساء ، وكأنّ حماستك قد فترت لهذه الأحاديث منذ الليلة ؟ !

قال فَهْم متضايقاً : - بل إن نشاطي للحوار على أشدّه ، وإنّ حماستي للأحاديث في أوجها ، ولا بدّ لي عما قريب من أن أطالبك بهما ؛ أما الآن ، فماذا أفعل ، إذا كان الامتحان قد أضحى قاب قوسين أو أدنى ، وأنت لا تريد لي فيه النُّجْح العادي ، وإنّما تريد التفوق والامتياز ؟! .. وإذن فلا بدّ لي من الاجتهاد ، ولا بد من أنْ أستعدّ فأحسن الاستعداد !

قال الأب : ذلك أني لا أريدك طالب شهادة ، أقصى مناه أن يحصل بها على وظيفة ، وإنّما أريدك

طالب علم ، يندفع فيه ، فيحصل أعلى الدرجات ، ويخدم وطنه ، فيجعل رايته فوق الرايات .

قال فَهْم : وهل تظن أنّ الحصول على أعلى الدرجات ، يعني دائماً العلم الغزير ؟! ، كلا يا سيدي ، إن بعض الظن إثم ، .. ها هم أولاء أساتذتنا في الجامعات ، فهم يحملون أعلى الدرجات العلمية في تخصّصاتهم ، وإنّ أقلهم هم الذين يُعجِبون ،، وإنّ أكثرهم يخيّبون الظّن ، حتى إنّ " عفاريت " الطلاب ، لا يتورعون عن استغابتهم ، وسلقهم بألسنة حِداد ، قائلين عنهم فيما بينهم " مرحى لهم ، ما أذكاهم وما أمهرهم ! كيف حصلوا على درجات الدكتوراه والماجستير ، وكيف تسللوا الى المعاهد والجامعات ، وتسلقوا مناصب فيها ، وهم الذين لا علم لديهم ولا ثقافة ، ولا سعة أفق عندهم ولا عمق ، ولا فكر لهم ولا استنارة ؟! ولكن مرحى

لهم ! ما أبرعهم في ستر جهلهم بالأدعاء ! وما أحذقهم في إخفاء تقصيرهم بالخيلاء ! حتى إنك تراهم سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكنهم يميسون بدرجاتهم تيهاً ، لأنهم يرونها دليلاً على التميّز والنبوغ ، فهنيئاً لهم إذ ينظرون الى الشهادة على أنها وسادة ، ينيمون عليها رؤوسهم قريري العيون !"

قال الأب مقهقهاً : صدق العفاريت ، حقاً أنّ هؤلاء ينظرون الى الشهادة على أنها وسادة ، ولكنها وسادة خالية ، كوسادة المرحوم عبد الحليم حافظ، التي صنعها له إحسان عبد القدوس ، غير أنها هنا خالية من العلم والتحصيل .

***



# نبذة عن الكاتب
## الاستاذ الدكتور توفيق ابو الرب

* ولد الدكتور توفيق أبو الرب في بلدة كفرة / قضاء بيسان في فلسطين عام ١٩٤٧م .
* هاجر أهله بعد النكبة إلى مدينة إربد شمال الأردن واستقروا فيها.
* أنهى تعليمه الثانوي في مدرسة حسن كامل الصباح عام ١٩٦٦م .
* حصل على درجة الليسانس في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية .
* حصل على الماجستير في الأدب العربي من جامعة اليرموك .
* حصل على شهادة الدكتوراة في الأدب العربي من الجامعة الأردنية عام ١٩٨٨م .
* عمل مدرسا في مدارس وزارة التربية والتعليم الأردنية ثم مدرسا في كلية حوارة وكلية تأهيل المعلمين العالية .
* عمل أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية في جامعة إربد الأهلية.
* صدر له حوالي ١٧ كتابا في الشعر والرواية والنقد ومنها : دراسات في الفلكلور الأردني ، قراءات في الأدب الأردني ، طوبى للمتسلقين ، محاورات طه حسين ،حكايات جندب اليعربي ، حكايات حمدي الإربدي ، أوبريت صرخة القدس .
* الدكتور توفيق شخصية موسوعية فهو أكاديمي وقاص وروائي وشاعر وناقد .
* عضو رابطة الكتاب الأردنيين منذ تأسيسها .
* توفي في إربد عام ٢٠٢١ م .

رحمه الله وغفر له.

